مجلد ٧ — عدد ٢٧

ديسمبر ١٩٤٧



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

تحت الطبع

كتاب البخلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تاريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى پروڤنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تأليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى بك

الجواهر لا توضع فى المهمل من الأوراق ..



بل توضع فى

علب جميلة انيقة

. . . كذلك الكتب التى تحتوى كنوزاً أثمن من الجواهر ، يجب أن تظهر فى ثوب بديع من حسن الطباعة وأناقة المظهر .

وهذا ما تعمل له دار الكاتب المصرى ، فهى تختار أجمل الثياب لأقيم الكتب .

دار الكاتب المصرى ، قسم النشر باشراف الدكتور طه حسين بك

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٥٠٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

محرم ١٣٦٧ — ديسمبر ١٩٤٧

السنة الثالثة — مجلد ٧ — عدد ٢٧

المعذبون فى الأرض

المعتزلة

لا أريد تلك الفرقة الاسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ، وإنما أريد أسرة مصرية بائسة كنت أنسيت أمرها ، حتى كان هذا الوباء الذى ألم بمصر فذكرتها ذكراً متصلا ملحا ، وحاولت أن أخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن ذكراها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث أن يخرجها من ضميرى الخاص إلى الضمير العام ، فيكون فى ذلك تخفيف للعبء ، وتفريج للكرب ، وشفاء لبعض ما فى النفس . والهموم الثقال تخف إذا شاركت فى حملها ضمائر كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن أيِّداً قويا ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن أهدى حديث هذه الأسرة البائسة إلى المترفين المنعمين فى الأرض ، لا لأبغض إليهم الترف بل لأزينه فى قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيباً وأدفعهم إليه دفعا . فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خليق ألا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملأ قلبه الحسرة ويثقل نفسه الهم ، وأن ينظر إلى من دونه من الناس فيعرف ما أتيح له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له ، وإسباغ نعمته عليه ؛ ويستمسك من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قدر له من النعيم . وأنا أبعد الناس عن التفكير

فى أن أزهِّد المترفين فى ترفهم وأرغب المنعمين عن نعيمهم ؛ لأنى أعلم من جهة أنى لن أبلغ من ذلك شيئاً إن أردته مهما أنفق من الجهد ، ومهما أبرع فى تدبيج القول وتنميق الحديث . ولأنى أعلم من جهة أخرى أنَّ ترف المترفين إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم . وليس من سبيل إلى تغيير القضاء ، أو تبديل القدر ، أو إلغاء سنة الله فى الناس . فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يطغيه الترف وينعم حتى يبطره النعيم . ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ، ويشقى حتى يمجه الشقاء . ولأنى أكره بعد هذا وذاك أن أكون كالثعلب الذى حاول أن يصيب العنب ، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم أنه فج بغيض .

وقد خطر لى أن أتخذ لهذا الحديث عنواناً آخر ، هو أمُّ تمام . لا أريد به زوج شاعرنا العظيم ، وإنما أريد به زعيمة هذه الأسرة المصرية البائسة ؛ فقد كانت تكنى بأكبر أبنائها . وخطر لى أن أهدى حديث هذه الأم وبنيها الثلاثة إلى البائسين المعذبين الذين مسهم الضر قبل الوباء ، وألحَّ عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت أبناءهم وآباءهم وإخوانهم وعائليهم وتركهم نهباً للشقاء ، لا يدرون كيف يتقونه ، ولا كيف يحتملونه ، ولا كيف يخلصون منه . لا لأبغض إليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد ، فما ينبغى أن تبغض إلى البائس بؤسه ولا أن تكره إليه شقاءه ، وإنما ينبغى أن تحبب إليه البؤس ، ليحتمله وليتزيد منه إن استطاع ، وأن تزين فى قلبه الشقاء ، ليصبر عليه ويمعن فيه إن وجد إلى الامعان فيه سبيلا . فالبؤس قضاء محتوم على البائسين ، كما أن النعيم قضاء محتوم على المنعمين . والشقاء قدر مقدور على الأشقياء ، كما أن السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل الحازم العازم الحكيم خليق أن يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم ، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر غير ساخط عليه . ولأمر ما وُصف الشرقيون بأنهم أصحاب إذعان للقضاء ، واستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه . فلنصدق على أقل تقدير قول الغرب عنا وظنه بنا ورأيه فينا ، ليصطنع المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليصطنع البائسون الشجاعة ليحتملوا البؤس ، وليصبر أصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ، وأصحاب الحرمان على فتنتهم بالحرمان ، حتى ينتهى أولئك وهؤلاء إلى الموطن الذى

لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذى لا يكون فيه فقر ولا غنى ، والذى لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذى تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعاً حين يصيرون إلى تراب كما خلقوا من تراب . ومهما يكن من شئ فقد ترددت بين هذين العنوانين : المعتزلة وأمّ تمام ، كما ترددت فى إهداء هذا الحديث بين المترفين والبائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن أخيّر القارئ بين العنوانين ، وأن أهدى الحديث إلى الفريقين ؛ ففى حديث هذه الأسرة ما يرضى المنعمين والمعذبين جميعاً . وأى مطمع للكاتب أجل شأناً وأعظم خطراً من أن يرضى قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وفى حديث هذه الأسرة البائسة ما يسخط المنعمين والمعذبين جميعاً . وما قيمة الكاتب إذا لم يسخط قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا أريد دائما أن أكون كاتباً ذا خطر ، فأرضى قرائى وأسخطهم ، وأسر قرائى وأسوءهم ، وأعجب قرائى حتى يكلفوا بى أشد الكلف ، وأغيظهم حتى يمقتونى أعظم المقت . وأنا زعيم للمترفين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة ما يحبب إليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجز كما يقال ، ويرضون عنى كل الرضا ، وبأن أصور لهم هذا الترف منكرا بشعا ، ومذمما بغيضا ، فيسخطون علىّ أشد السخط . وأنا زعيم للمعذبين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضون عنى ، وما يلقى فى قلوبهم أن حياتهم لا تطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها إلى حياة ألين جانباً وأرق ملمسا ، وأن ليس لهم سبيل إلى هذا الخروج ، فيضيقون بى أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأغيظهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف . فأنا لا أريد إلا هذا ، ولا أفكر إلا فيه . وما الذى يعنينى من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الأشقياء حتى يهلكهم الشقاء! لا يعنينى من ذلك شئ ؛ لأنى رجل من أهل العصر الذى أعيش فيه . وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس . فأنا رجل أثِر لا أحب إلا نفسى ، ولا أفكر إلا فيها ، ولا أعنى إلا بها . وأنا رجل كاتب لا يعنينى إلا أن أملك على القراء أسرهم بما أثير فى قلوبهم من رضا وسخط ، وبما أشيع فى ضمائرهم من حب وبغض . ولست أزدرى شيئاً كما أزدرى إلقاء الدروس فى الأخلاق . ولست أنفر من شئ كما أنفر

من ترغيب الأغنياء فى العطف على الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ! إن الناس من حولى لا يذوقون للتضامن طعما ، ولا يعرفون للتعاطف قدراً ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم فى بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فمالى أحمّل نفسى من الأعباء ما لا يريد الناس من حولى أن يحتملوا ؟ وما لى أدفع نفسى إلى هذا الشذوذ الذى لا خير لى فيه ولا خير لأحد فيه ؟ ومالى لا أسير سيرة الجيل ، ولا أعيش عيشة المعاصرين ، ولا أنتفع بقول أبى العلاء :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً تجاهلت حتى قيل إنى جاهل

الأثرة ، ياسيدى ، هى الأساس المتين الذى يقوم عليه نظامنا الاجتماعى البديع ، الذى نفتديه بأنفسنا ونحميه بما نملك ومالا نملك من جهد . فمن أراد الدفاع عن هذا النظام وحياطته وصيانته من أن يعبث به العابثون أو أن تمسه الخطوب بما لا يحب و بما لا نحب ، فليكن أثراً إلى أبعد غايات الأثرة ، محبا لنفسه إلى أقصى آماد حب النفس ، لا يحفل بالناس إلا بمقدار ما يهيئون له من الخير ، وما يحققونه له من المنفعة ، وما يبلغونه من الآراب . فاذا بَعُدَ الأمد بينه وبينهم ، أو خفيت عليه أسرار الصلات التى تجعله محتاجاً إليهم وتجعلهم محتاجين إليه ، فلا عليه من أن ينكرهم إنكاراً ويزدريهم ازدراء ، ويمضى فى طريقه مستمتعاً بطيبات الحياة ، غير ملق بالاً إلى ما يكتنفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يسلّط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش ، وكذلك يجب أن نعيش . وأيسر انحراف عن هذا اللون من ألوان العيش عن هذا النظام من نظم الحياة خليق أن يجشمنا أهوالا ، ويحملنا هموما ثقالا . وكيف تستقيم حياتنا إذا عنى أصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فذادوا عنهم بعض ما يثقلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يضنيهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة النفجة ، التى تأتيهم من بؤس البائسين وعذاب المعذبين ، وشغلهم ذلك عن أن يجتمعوا إلى سخف الحديث حين يرتفع الضحى ،

وإلى سخف المتاع حين يقبل المساء ، وإلى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، وإلى النوم الثقيل حين يهم الصباح بالاشراق ؟ إذن تفقد الحياة بهجتها ، وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصرى كله نكداً كدراً منغصاً ، لا صفو فيه ولا عفو ولا جمال . حسبُ الأشقياء أن تعطف عليهم ألسنتنا وتنأى عنهم قلوبنا ، وأن نرثى لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ، ونخلى بينهم وبين أحداث الزمان ونوائب الأيام ، تجرّعهم الآلام غصصا ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب العذاب المر ، وإساغة الشر الذى لايساغ . وأقول هذا كله جادًّا لا عابثاً . فالله قادر على أن يمس الأرض بجناح من رحمته ، فيتيح لأهلها جميعاً ما يتمنون من الترف والثراء والنعيم . والله قادر على أن يمس الأرض بجناح من نقمته فيفرض على أهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب . وما دام الله لم يجعل الناس جميعاً سعداء ، ولم يجعلهم جميعاً أشقياء ، وإنما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذى نراه ، فليس لنا وليس علينا إلا أن نريح أنفسنا ، وأن يريح بعضنا بعضا من اللوم والنكير والتثريب ، وأن يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وأن يحقق السعيد إرادة الله فى الأرض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وأن يحقق الشقى إرادة الله فيغرق فى الشقاء إلى كتفيه أو إلى أذنيه ، أو إلى شعر رأسه إن شاء .

وقد يظن القارئ أنى قد أسرفت فى البعد به عن هذه الأسرة المعتزلة ، وعن حديث أمّ تمام . ولكنه يخطئ أشد الخطأ إن ظن بى هذا الاسراف . وهبه يصيب كل الصواب حين يظن بى هذا الاسراف ، فليس يعنينى من خطئه أو صوابه شئ . وإنما الذى يعنينى هو أنى أنا لا أعتقد أنى أطلت المقدمات أو انحرفت عن موضوع الحديث . فقد قلت إن هذا الوباء الذى ألم بمصر أذكرنى من أمر هذه الأسرة المعتزلة ما كنت ناسياً ، ثم ألح علىّ ذكرها إلحاحاً شديداً . وأكبر الظن أنى لم أذكر هذه الأسرة البائسة ذكراً متصلاً ملحًّا ، ليقف منها عقلى وقلبى موقف الناظر لها المحدق فيها ، دون أن يثير ذلك فى العقل بعض الخواطر ، ودون أن يثير ذلك فى القلب بعض العواطف ، ودون أن يشيع ذلك فى الضمير بعض الحزن . والكتّاب البارعون فى الفن يؤخرون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم

إلى آخر الحديث ، يجعلون من هذا كله عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وموعظة لمن يريد أن يتعظ . فيجعلون من أنفسهم أساتذة فى الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويرضون عن أنفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون أن القارئ أشد منهم مكرا وأبلغ منهم دهاء ، وأنه يقرأ أول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، أو لما قد يلتمس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والارشاد والاصلاح أشد الضيق .

ومن الكتّاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم فى حديثهم كله منذ يبدءونه إلى حيث يفرغون منه . يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم ، ولكنهم لا يخدعون القراء جميعاً . فلا يكاد الأذكياء منهم يقرءون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرءون على كره أو يزورّون عن القراءة ازورارا . فأما أنا فقد قلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أعلم جاهلاً ، ولا أريد أن أعظ غافلاً ولا أن أنبه ذاهلاً . فلست من هذا كله فى شئ ، لأنى واثق بأن القراء جميعاً علماء لا يمكن أن يرقى إليهم الجهل ، أذكياء لا يمكن أن تسعى إليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن أن يعرض لهم الذهول . وقلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أخدع أحداً عن نفسه ، لأنى لا أسئ الظن بالقراء ، ولا أنظر إليهم على أنهم أطفال يجب أن يلهوا عن الدواء بهذه الأغشية التى تجنبهم مرارته وكراهته . فكيف وأنا لا أقدم إليهم دواء ، لأنى لست طبيبا ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأنى راض عن حياتنا التى نحياها كل الرضا ، مطمئن إليها كل الاطمئنان ، معجب بها أعظم الاعجاب ، لا أريد أن أغير منها قليلا ولا كثيراً ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير . وأول هذا الحديث يدل فيما أظن دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال .

ومن أجل هذا كله اخترت أن أتحدث إلى القراء فى هذا المقال عن أمّ تمام وأسرتها المعتزلة ؛ لأن أمّ تمام كانت تصور المحافظة اليامنة أبرع تصوير وأصدقه وأفواه . فهى كانت من أهل الصعيد الأعلى . وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق

القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن فى الأرض جوراً يجب أن يرتفع عنها ، وأن فى السماء عدلاً يجب أن يهبط إلى الأرض ليملأها أمنا ودعة ورضاء . وإنما هم قوم يعيشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها . رأوا الأرض ملعباً لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك وألفوا هؤلاء ، ولم يطلبوا من أولئك ولا هؤلاء إلا أن يمضوا فيما استأنفوا من لعب . فان مسهم من هذا اللعب خير نعموا به ، وإن مسهم منه شر شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييراً ولا تبديلا . ويقال إن الكاتب يختار أشخاصه على صورته ، وقد يقتطعهم من نفسه اقتطاعا . ولولا أن أم تمام كانت غارقة فى البؤس والشقاء ، ومسرفة فى الدمامة والقبح ، لقلت إنى أقتطعتها من نفسى اقتطاعا . ولكنى لست غارقاً فى البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال . وسيرى القارئ أن صورة أم تمام ليست منى فى شئ ، فيدله ذلك من غير شك على أنى لم أخترعها ولم أبتدعها ، وعلى أن خيالى الضعيف الكليل ليس له فى حياتها ولا فى حياة أسرتها أثر ما ، وإنما هى حقيقة واقعة خلقها الله الذى يخلق الحقائق كلها ، والذى يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء .

وقد كانت أم تمام هذه غريبة الأطوار من كل جوانبها ، حتى إنى لا أستطيع أن أختار الطور الذى أبدأ به من أطوارها . وربما كان الخير أن أعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت الضئيل الحقير الذى كانت تعيش مع أبنائها فيه .

فقد كان هذا البيت أشبه شئ بالبقعة القذرة التى تفسد جمال الثوب الجميل النقى . كان ضيقاً فى الفضاء أشد الضيق ، منخفضاً إلى الأرض أشد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين الساذج الذى يخلطه الفلاحون بشئ من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه فى مصر الوسطى « بالطوف » . ثم يجمعون بعض هذه الأطواف إلى بعض حول قطعة من الأرض ، يرفعونها فى الجو شيئاً ويمدونها فى الفضاء شيئاً ، ويلقون عليها طائفة من سعف النخل أو من قصب الذرة ، ويتخذون لها باباً من خشب رقيق ، فتصبح بيتاً يأوون

إليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف وسطر السماء إن كان من الممكن لمثل هذا البناء المهلهل أن يقى الذين يأوون إليه برداً أو حرًّا أو مطراً .
وكان بيت أم تمام هذا الصغير الحقير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ، أو قل بين فناءين واسعين لهاتين الدارين . وفى كل فناء من هذين الفناءين قامت أشجار وشجيرات ، بحيث همَّ كل فناء منهما أن يكون حديقة تقوم أمام الدار ، ولكنه لم يبلغ أن يكون حديقة ، فكان شيئاً بين الفناء المهمل والحديقة التى يمنحها الناس شيئاً من عناية ، ويجدون فيها شيئاً من راحة وروح . ولم أدر كيف قام هذا البيت الحقير الصغير بين هاتين الدارين العظيمتين . وقد سألت الناس من حولى عن هذا ، كما سألتهم عن مقدم أم تمام وبنيها إلى القرية وإقامتها فى هذا البيت ، فلم أجد عند أحد منهم جواباً ؛ لأنهم كانوا جميعاً طارئين على القرية دعتهم إليها الدائرة السنية ، ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان أنشأتها فيه الدائرة السنية ؛ فلم يكونوا يعرفون من أمر جيرانهم ولا من أمر قريتهم إلا قليلا أو أقل من القليل . وكانت سيرة أم تمام وبنيها تمنع جيرانها من أن يعرفوا شيئاً من أمرها ؛ فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالا غير مألوف . ولكن أوان الحديث عن هذا الاعتزال لم يئن بعد . فقد ينبغى أن تعرف قبل ذلك أم تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ؛ فصورتها خليقة أن ترسم .
كانت أم تمام قصيرة مسرفة فى القصر ، منحنية مسرفة فى الانحناء . همَّت قامتها أن ترتفع فى الجو فلم تستطع أن تستقيم وإنما انعطف أعلاها على أسفلها كأنها خلقت لتلتصق بالأرض التصاقاً . وكانت من أجل ذلك أشبه بذوات الأربع منها بالانسان ذى القامة المعتدلة والقد المستقيم . وكانت من أجل هذا إذا مشت خيِّلت إليك أنها تتدحرج كما تتدحرج الكرة . وكان مشيها بطيئاً رفيقاً ، فكان يشبه حركة الكرة عندما تخف عنها قوة الدفع فتضطرب مبطئة تسعى إلى السكون . وكان صوت أم تمام نحيلا ضئيلا ، وكانت قد فقدت بعض أسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا فى مشقة وجهد . وكان يعيش معها فى بيتها ذاك الصغير الحقير غلامان ، كاد أحدهما أن يبلغ العشرين وهو تمام ، وجاوز الآخر الخامسة عشرة قليلا وهو أبو العلاء .

وكان تمام وأخوه يعملان فى البناء ، يحاول تمام أن يكون بنّاء ، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من الأدوات التى تتصل بعمل البنائين . ويصيب الغلامان من هذا العمل الذى يتصل أحياناً وينقطع أحياناً أخرى ما يتيح لأسرتهما قوتاً يقيم الأود ولا يكاد .

وكانت لأم تمام بنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وهى سعدى التى كان الجمال والدمامة يختصمان على وجهها وجسمها كله اختصاما شديداً : يريد الجمال أن يستخلصها لنفسه مستعينا بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح أن يؤثر بها نفسه مستعينا بالبؤس وما يستتبعه من الحرمان . وكانت الصبية بين هذين الخصمين أشبه شئ بالكرة يتقاذفها اللاعبان . ولم يعرف أحد لهذه الأسرة زعيما ، بل لم يعرف أحد كيف هبطت الأسرة من أعلى الصعيد إلى هذه القرية من قرى مصر الوسطى . وإنما كان الناس يتحدثون بأن أم تمام قد نهضت وحيدة أو كالوحيدة تنشئ بنيها الثلاثة وقد لقيت فى ذلك جهداً جهيداً ، وعناء شديداً . لم تهبط بهم من صعيدها الأعلى إلى قريتنا تلك إلا متنقلة بين المدن والقرى ، تقيم فى هذه المدينة سنة أو أقل أو أكثر ، وتقيم فى هذه القرية أشهراً ، وفى هذه القرية أسابيع ، وفى هذه القرية أياماً قليلة أو كثيرة ، حتى انتهت إلى قريتنا تلك ، فأقامت فيها وأطالت المقام .

ولم يكن اسم أم تمام أقل غرابة من كنيتها ، بل لم يكن أقل غرابة من جسمها . فأنت إن أردت أن تنطق به كما كان الناس ينطقون به فى القرية قلت ست أبوها ، وإن أردت أن تنطق به على أصول اللغة الفصحى قلت سيدة أبيها ، أو ست أبيها كما كان الناس ينطقون فى بعض عصورنا القديمة . وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعاً غريباً ؛ وكنا ننطق به على أنه كلمة واحدة لا كلمتان ، وكنا نسأل أنفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب .

ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول أحد من بنيها قط الاتصال بالناس إلا حين كانت الضرورة الملجئة تضطرهم إلى ذلك اضطرارا . فقد كانوا يحتاجون إلى ان يشتروا الطعام ليقيموا أودهم . وكانت أم تمام تحتاج أحياناً إلى أن تبيع ؛ فقد كان يعرض لها فى بعض الوقت أن تخرج إلى الطريق الزراعية العامة ، وأن تلتقط من هذه الطريق روث البقر والجاموس تقطعه قطعاً

متقاربة ، وتجففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقوداً لتطبخ إن أتيح لها أن تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقرش أو بعض القرش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنيها . ولم يخطر فيما أعلم لأحد من الموسرين ولأهل الدارين اللتين كانتا تكتنفان بيتها أن يبروا هذه الأسرة بقليل أو كثير من الخير ؛ لا لأن الموسرين كانوا يبخلون بالمعونة على الذين يحتاجون إلى المعونة ، بل لأنهم فى أكبر الظن قد همّوا أن يبروا هؤلاء الناس فردوا برّهم عليهم فى شئ من التعفف الذى لا يحب من الفقراء ، فكفّ الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم فى الرزق . وأمثال أم تمام فى القرى يوسعن على أنفسهن وعلى أبنائهن وأزواجهن أحياناً بالعمل فى دور الموسرين والأغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت أنفسهن وفضلاً من خير يحملنه إلى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسى العريان ويذوق المحروم شيئاً من طيبات الحياة .

ولكن أم تمام لم تحاول شيئاً من ذلك ولم تفكر فيه ؛ وكأنها قد حرجت على ابنيها أن يحاولا بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الأغنياء وأصحاب السعة . فلم يكن الغلامان يشاركان فى لعب ولا فى جد . وربما رآهما الراءون وقد جلس كل منهما إلى أخيه يخططان فى الأرض أو يلعبان لعبة «الطاب» . وكذلك نظر أهل القرية إلى هذه الأسرة على أنها أسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها فى كل شئ . وكان أهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس فى إشفاق كثير لا يخلو من سخرية ، وربما يقسو — إن أمكن أن يكون الاشفاق قاسيا — فيشتمل على شئ من شماتة . كانوا يرون هذين الغلامين يحتملان أشد العناء وأشق المشقة ليكسبا القروش القليلة فى بعض الأيام ، ويتساءلون كيف تعيش هذه الأسرة من هذا الكسب القليل . وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها أن تستتر ، ورقعت حتى ملت الترقيع . وكانوا يرون الصبية سعدى فى أسمالها البالية ، فيرحمون هذا الصبا النضر فى هذا الغشاء المبتذل . ويقول بعضهم لبعض لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشاً أرق رقة وألين لينا .

أما أم تمام فلم يرها أحد قط إلا ملتفة فى شقتها السوداء تتدحرج على الأرض حين تشرق الشمس ساعية إلى الطريق العامة ، وتتدحرج

على الأرض حين يرتفع الضحى أو ينتصف النهار ، حاملة ما جمعت من روث . وربما رآها الراءون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه ، فرأوا منظراً بشعاً وشكلا مخيفاً .

ويقبل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره سنتين . ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى . ويفجع الناس فى أنفسهم وأبنائهم وذوى قرابتهم ومحبتهم ؛ وتكون أم تمام فى طليعة الذين يفجعهم الوباء ؛ فهو يختطف ابنيها جميعاً فى أقل من خمسة أيام . وهى مع ذلك هادئة ساكنة مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، لايرتفع لها صوت بالاعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ، وإنما هى مقيمة فى بيتها ، وقد آوت إليها ابنتها كأنما تنتظران أن يلم الوباء بهما ويختطفهما كما اختطف الغلامين . ولكن الوباء قد أرضى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود إليه . فاذا طال انتظار أم تمام له فى غير طائل ، نظر الناس فاذا أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، وإذا حياتها قد بدلت تبديلا ؛ فهى لا تألف بيتها ولا تحب الاستقرار فيه ، وإنما تمسك فيه الصبية وتحرج عليها أن تخرج منه ، وتنطلق هى مع الشمس المشرقة لتعود إلى بيتها وابنتها حين ينشر الليل ظلمته على الأرض ، ويسعى الموت والمرض مستخفيين إلى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملفقة فى شقتها السوداء مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، فتقف أمام بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها فى تكلف شديد إلى السماء ، وتمد بصرها أمامها ثم تلتفت إلى يمين وإلى شمال ، تجذب الهواء بأنفها جذباً إلى أنفها ، كأنما تحاول أن تتنسم رائحة خفية ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تتنسم رائحة الموت ، ثم تندفع إلى يمين أو إلى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله إلا فى دار من هذه الدور التى ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين . وكانت أم تمام تصل إلى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد شيئاً ، ولا تلقى إلى أحد سمعاً ، وإنما تقصد قصد المأتم الباكيات ، وتجلس حيث ينتهى بها المجلس ، لا ترفع صوتا باعوال ولا تخفض صوتاً بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرها ، ولا تصنع صنيع أحد من هؤلاء النساء ، وإنما تجلس ساكنة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحتت

فى غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينابيع الضئيلة التى يتفجر عنها الصخر فى الجبال . حتى إذا بلغت حاجتها من البكاء فى هذه الدار تركتها إلى دار أخرى ثم إلى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضى النهار لا تكلم أحداً ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكى ابنيها ؟ أكانت تبكى أبناء تلك الأسر التى كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكى صرعى الوباء جميعاً ؛ أم كانت تبكى نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ، وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيح لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط أن يعرف من ذلك قليلا ولا كثيراً . لم يحاول أحد أن يُعينها ، ولم تحاول هى أن تستعين بأحد ، وإنما أنفقت أيام الوباء تتنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتسفح دموعها فى منازل الموت أثناء النهار ، وتعود إلى بيتها وابنتها حين يقبل الليل . وتنجلى غمرة الوباء ، وتخرج أم تمام من بيتها مع الصبح أياماً وأياما ، فتستقبل بوجهها الغرب تتنسم ريح الموت فلا يحملها إليها النسيم ، فترجع أدراجها وتدخل بيتها وتغلق من دونها الباب ، ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت . ويراها بعض أهل القرية ذات يوم وقد خرجت قبل أن يرتفع الضحى ، وأخذت بيد ابنتها وجعلتا تسعيان فى بطء نحو الغرب ، فيقول بعضهم لبعض : هذه أم تمام قد ملت البطالة ، وسئمت السكون وشق عليها وعلى ابنتها الجوع ، فخرجتا تلتمسان الرزق وتبتغيان من فضل الله . ولكن النهار لا يكاد ينتصف حتى يأتى نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة أخرى تمتنع على الموت امتناعاً . قد رأوا أم تمام تغرق نفسها وابنتها فى القناة الابراهيمية ، فأسرعوا إلى استنقاذهما ، ولكن الموت سبقهما إلى الشيخة وسبقوه هم إلى الصبية . وقد دفن أهل الخير أم تمام ، وآووا سعدى ، فى هذه الدار أياماً وفى تلك الدار أياماً . ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ من عقل ولا نصيب من صواب ؛ فهى ثقيلة على الذين يؤونها ، بغيضة إلى الذين يضيفونها . وما هى إلا أسابيع حتى تلفظها الدور والبيوت ، وإذا هى مشردة تسعى ما استطاعت السعى ، وتسكن حين تضطر إلى السكون تراها فى هذا الشارع من شوارع القرية مصبحة وفى هذا الزقاق من أزقتها ممسية ، وتراها بين ذلك فى الطريق

العامة تسعى سعياً رفيقاً كأنها السلحفاة ، أو تعدو عدواً سريعاً كأنها الأرنب . وقد تراها أحياناً جالسة على شاطئ القناة تنظر إلى الماء كأنها تريد أن تغوص فيه ، أو تنظر إلى السماء كأنها تريد أن ترقى إليها . وعرف الناس سعدى البلهاء ، ونسى الناس أم تمام ، وجعل الناس ينظرون إلى سعدى البلهاء كما ينظر أهل الريف إلى أمثالها ، يعطفون عليها حيناً ويضحكون منها أحياناً ، يرثون لها مرة ويقسون عليها مرات .

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقى على وجهها مسحة من جمال ، وهى على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن أن تعمل ولا تحسن أن تقول ، ولا تستقر فى مكان ، وانما هى متنقلة بين القرى : ترى فى هذه القرية يوما وفى تلك القرية يوما آخر ، وقد ترى فى هذه القرية مصبحة وفى القرية المجاورة من قرب أو من بعد ممسية . ولكن أهل القرية يرونها ذات يوم فيرون منظرا عجبا من شأنه أن يمزق القلوب حزنا ويفرق النفوس حسرة وأذى . يرون هذا المنظر المؤذى البشع البغيض ، فلا يثير فى نفوسهم رحمة ولا يجرى ألسنتهم بكلمة رثاء ، وانما ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتبادلون هذه الألفاظ الغليظة التى تصور سخرية أهل الريف ، لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع فى أحشائها جنينا . وهى بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد إن كان لمثلها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذى كانت تحمله فى أحشائها ؟ أأتيح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم يتح له أن يراه ؟ ما خطبه وما خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرهما بشئ لأنى لم أعرف من أمرهما شيئاً . وانما حدثتك بما وقف عنده علمى ، فقد ارتحلت عن القرية قبل أن تبلغنى أنباء الجنين وأمه البلهاء ، ثم شغلت عن الجنين وعن أمه البلهاء وأُنسيت أم تمام وابنيها . وتقلبت فيما شاء الله أن أتقلب فيه من شؤون الحياة خمسة وأربعين عاما . ثم أعود إلى مصر بعد غيبة عنها قصيرة أو طويلة ، فأجد فيها الوباء ، وما هى إلا أن أذكر أم تمام وابنتها سعدى البلهاء وما هى إلا أن أسأل نفسى أيمكن أن يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال أم تمام وأشباه أم تمام ؟

يقال إن شؤون مصر قد تغيرت ، وإن حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن . ولكن شؤون مصر التى تغيرت ، وحياة مصر التى صلحت لم تمنع الوباء من أن يجدد عهده بزيارة مصر . فمن يدرى ! لعل تغير الشؤون وصلاح الأحوال ورقى النظام الاجتماعى والسياسى ، لا يمنع من أن توجد فى قرية من قرى مصر العليا أو من قرى مصر السفلى ، أو قريباً جداً من القاهرة ، أسرة معتزلة كأسرة أم تمام .

طه حسين

العالم اليوم بين التأميم والتمويل

حسب الناس أن مؤتمر سان فرنسيسكو ، إذ انعقد فى ربيع سنة ١٩٤٥ كان إيذاناً بسير العالم سيراً حثيثاً فى سبيل التعاون بين سائر أجزائه . لكن هيئة الأمم المتحدة التى انبعثت من ميثاق ذلك المؤتمر لم تلبث أن كانت اجتماعاتها مثاراً للكامن بين أعضائها من خلاف ، كما لم تلبث المؤتمرات الدولية التى عقدت فى باريس ولندن وواشنطن وموسكو ، أن سجلت مواضع المنافسة بين اتجاهات الدول الكبيرة الخاصة ، فكادت الحوادث تعود بنا إلى الأوضاع القديمة المتصلة بتعادل القوى ، وتوازن النفوذ ، لولا أن هذه الحوادث قد كشفت عن جديد ، تتميز به حركة العودة الملاحظة ، والرجوع المرتقب .

ذلك بأن العالم قد أخذت معالم الانقسام فيه تتبين بين ما يعبرون عنه بالشرق والغرب ، أو بين ما يحدده الواقع بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن كان الانقسام فيما مضى يقع بين دول المنطقة الواحدة ، وتظل قارة بأكملها منعزلة عنه انعزالا . وذلك بأن التميز الواقع الآن إنما يستند إلى اتجاهين اقتصاديين اجتماعيين متقابلين متناقضين : اتجاه التأميم ، واتجاه التمويل .

أما التأميم فيرمى إلى تمليك وسائل الانتاج كلها إلى الأمة ، ويهدف إلى محو الأرباح الفردية وتوجيه الفروق بين الموارد والتكاليف لزيادة أجور العمال والمساهمة فى تهيئة أسباب الهناءة للجماعة التى تكتنفهم . وأما التمويل فيرمى إلى خص أرباب المال بتلك الوسائل جميعها ، ويهدف إلى زيادة الأرباح الفردية يوزعها على حملة الأسهم والقراطيس .

والواقع أن الاتحاد السوفيتى يمثل نظامه الاشتراكى التأميم إلى أقصى

حدوده ، وأن الولايات المتحدة الأميريكية يمثل نظامها الرأسمالى التمويل إلى أقصى حدوده ؛ فكل شئ فى الأول ملك للدولة ، وكل شئ فى الثانية ملك لأصحاب رءوس الأموال المكتلة . والواقع كذلك أن العالم متراوح بين النظامين ، بل إن التراوح ذاته يتوافر داخل أكثر من دولة من دوله ، ولا تختلف فيه إلا نسبة الميل إلى اليمين أو إلى اليسار . ففى بعض البلاد الرأسمالية الحرة نجد أكثر من مرفق من المرافق ملكا للدولة كالسكك الحديدية والمناجم مثلا ، وفى بعض البلاد الجماعية نجد أكثر من نشاط انتاجى متروكا للأفراد ، وإن خضع تركه لبعض الشروط كالمصانع التى يقل العمال فيها عن عدد معين أو المزارع التى تنقص مساحتها عن قدر محدد . وقد تكون بلجيكا مثلا للنوع الأول ، وقد تكون تشيكوسلوفاكيا مثلا للنوع الثانى .

على أن المشاهد المقرر انما هو الميل الواضح خلال العالم كله إلى السير فى سبيل التأميم والابتعاد عن طريق التمويل . وقد تمت فى انجلترا حركات التأميم للبنوك والمناجم وطرق المواصلات أو كادت ، كما تمت حركاته أو كادت كذلك فى فرنسا وفى إيتاليا ، وكما تتبين وتتجلى فى بلجيكا وفى هولندا ، وكل تلك البلاد واقعة إلى غرب الخط الفاصل بين المنطقتين المتقابلتين ، وهو الخط الممتد من ممل وشتتن فى الشمال إلى تريستا فى الوسط وإلى جزيرة كورفو فى الجنوب .

وقد لمست الولايات المتحدة هذا الاتجاه البادى . ولعل لمسها إياه هو الذى دعاها إلى اخراج مشروع مارشال ، وهو يهدف فيما يهدف إليه إلى إعاقة السير فى سبيل التأميم عند البلاد التى يمنيها بالاعانة والمساعدة . بل إن هدف الولايات المتحدة قد وضح وضوحا حين سعت إليها انجلترا للحصول على قرض جديد أو لتعديل قيود قرضها القديم ، فاشترطت أن تعدل انجلترا عن حركة تأميم صناعة الصلب والفولاذ التى كانت وزارة العمال متجهة إليها فى حماسة . وهو كذلك يتضح هذين اليومين فى تضمينها شروط إعانتها العاجلة لفرنسا وإيتاليا والنمسا تعهد هذه الدول باستعمال هذه الاعانة استعمالا ذكيا . ولا شك أنها تعنى بالذكاء تمام الانسجام مع النظرات التى تنظر بها هى إلى ماينبغى أن يتوافر فى العالم من أنظمة اقتصادية واجتماعية تتفق مع مصالحها بل تخدم هذه المصالح بالذات .

والحق الذى بدا منذ قامت قيامة الرئيس ترومان فى سبيل مساعدة اليونان وتركيا ، إنما هو رجوع النشاط الأميريكى فى ميدان التنظيم الاقتصـادى والدعم المالى إلى اعتبار الوجل الذى يكتنف أرباب المال فى الولايات المتحدة ذاتها من جراء انتشار فكرة التأميم فى العالم . ذلك أن التأميم يقضى على استثمار الأموال الفردية ، وذلك أنه ينظم التوجيه الاقتصادى . والولايات المتحدة تنتج أكثر مما تستهلك من ناحية ، وقد تكدست فيها الأموال من جراء مكاسبها أثناء الحرب من ناحية ثانية . ودول أوربا قد أصيبت بويلات قللت من قدرة الشراء فيها ؛ فقد ضاعت أموالها وضعفت وسائل انتاجها . ومصلحة الولايات المتحدة تقضى باعادة هذه القدرة إليها حتى تستطيع أن تنشر فيها منتجاتها التى تهدد بالتكدس داخل حدودها . وقد رأت تحقيقاً لهذه المصلحة أن تعين الدول الأوربية عن طريق القروض بل عن طريق الهبات ، حتى تستطيع أن تشترى منها الزائد عن حاجة استهلاكها ، فتستمر مصانعها محتفظة بمستوى انتاجها ويستمر حملة أسهم هذه المصانع محتفظين بمستوى أرباحهم من ناحية ، كما رأت أن تتقدم بأموالها المعطلة لانشاء المصانع وتنفيذ المشروعات فيفيد أرباب هـذه الأموال من دخول هذه المشروعات وتلك المصانع . وفى هذا كله درء للكارثة أن تحل بالاقتصاد الأميريكى ، ودرء للافلاس أن ينزل بالمولين الأميريكيين .

لكن نظرية التأميم تعوق ذلك التحقيق الذى تريده الولايات المتحدة وأرباب المال فيها . فهو تمليك للأمة ، وإذن فلا صناعات ولا مشروعات لأفراد أو شركات . وهو تمليك الأمة الدولة ، فلا توظيف لمال أجنبى فى أى نشاط اقتصادى داخل حدود هذه الدولة . وهو من ناحية أخرى تنظيم للتوجيه الاقتصادى ، فهو دفع لقدرة الشراء حيث يرى مصلحة جماعته ، وقد يقصرها داخل حدود هذه الجماعة ، وقد يقصرها على أصناف غير تلك التى تعنى الولايات المتحدة بتصريفها وبخلق أسواق لها .

وريح التأميم تهب عاصفة من ناحية الاتحاد السوفيتى ، وإن كانت تسود أجواء بلاد لا تمت للشيوعية ولا للاشتراكية بسبب ، وتحملها الآراء الجديدة التى تحاول أن تطرأ على تنظيم العالم الحديث ؛ فلا بد من ناحية

النظر الاميريكية أن تجند الجهود فى سبيل مقاومة الشيوعية بصفة عامة وفى سبيل مقاومة اتجاهات التأميم بصفة خاصة . وفى اليونان تيار شيوعى فينبغى القضاء عليه فى مهده ، وفى تركيا عداوة تقليدية للروس فيجب تغذيتها ، وفى تشيكوسلوفاكيا عدم تبين لتفوق الاتجاه الشيوعى على الاتجاهات اليمينية فلا يجوز ترك أمورها لنفسها خشية انتهاء ذلك الاتجاه إلى التفوق ، وفى فرنسا وفى إيتاليا نشاط شيوعى بارز وفيهما أزمة اقتصادية حادة ، فيصح مساومتهما بالمعاونة على الخروج من الضيق الاقتصادى بكبت ذلك النشاط الشيوعى ، وفى انجلترا — الأخت السكسونية — ميل اشتراكى يدعو إلى التأميم ويحقق بعض جوانبه ، وفيها كذلك ضيق مالى ونقص تموينى ، فليفرض عليها الوقوف فى وجه التأميم إذا هى شاءت الانتفاع من فضل القروض وشروطها الميسرة .

وغير دول أوربا التى نزلت بها نوازل الحرب فأخلت بتوازنها الاقتصادى والاجتماعى ، دول أخرى فى أميريكا الجنوبية وفى الشرق الأوسط ، قد يميل بعضها إلى الأخذ بمبدأ من مبادىء التأميم ، وقد يفكر بعضها فى الخروج من حظيرة الزراعة الضيقة إلى مضمار الصناعة الواسع . وإذن فلتسبق الولايات المتحدة إلى ربط هذا الغير من الدول باتجاهات تضمن لها فيهن التفوق . وأميريكا الجنوبية واقعة فى « النصف الغربى من الكرة الأرضية » ، فلتدخل فى نطاق الدفاع عن هذا النصف ، وليجرها هذا الدفاع إلى الوقوف موقف التضامن المحتوم من مناوأة الاتحاد السوفيتى ومن مناهضة الشيوعية . وفى الشرق الأوسط احتمالات مقرونة برغبات صادقة فى سبيل التصنيع ، فلتتقدم الولايات المتحدة لدوله باقتراحات المساهمة المالية والفنية فى انشاء المصانع الجديدة ، وليكن بينها المصانع الحربية ، ولتضع بذلك يدها على الانتاج الجديد ، ولتوجه الحربى منه بخاصة الوجهة الفنية التى تتمشى مع أغراضها الاستراتيجية ، فتقلب هذا الشرق الأوسط مع ركنه الشمالى الشرقى — ركن تركيا واليونان — حصونا حربية واقتصادية للدفاع عن كيانها وكيان أرباب المال فيها .

تلك هى الشواهد التى يستقرئها من يتتبع تطورات الحوادث الجارية طوال العامين المنقضيين على قيام هيئة الأمم المتحدة التى ظنها المتفائلون

أداة من أدوات التوفيق ووسيلة من وسائل الحد من المطامع . وإنها لناطقة بأن النزاع المستولى على الاتجاهات فى العالم ، إنما هو نزاع مستند إلى مُدْرَكين متناقضين : مدرك التأميم ومدرك التمويل ، تقوم بينهما حرب شعواء يلجأ الطرفان الملتحمان فيها إلى كل ما يستطيعان الالتجاء إليه من أساليب ووسائل ؛ فهى فى نظرهما على السواء حرب قيام أو فناء .

محمود عزمى

فى أفق السياسة العالمية

الحرب الباردة والقنبلة الذرية

وصف أحد الكتاب السياسيين حالة الجفاء والتوتر القائمة الآن بين الدول الكبرى بأنها الحرب الباردة أو الجامدة ، التى لا تراق فيها الدماء، ولا تقتتل الجيوش ، وإنما تصطدم فيها السياسات وتصطرع مصالح الشعوب ، ويضحى من أجلها بأنفس ما وصلت إليه جهود البشر فى الحرب الأخيرة من تعاون وسلام . ومن علامات هذه الحرب الجديدة ، أن الكتّاب والسياسيين الذين كانوا فى الماضى ينبذون اسم الحرب ، ويتحاشون ذكرها فى أحاديثهم أو بياناتهم ، قد أصبحوا الآن لايكاد يمر يوم دون أن تجرى فيه كلمة الحرب المشئومة على ألسنتهم وعلى أسنة أقلامهم ، لا فى خطبهم وصحفهم فحسب ، بل كذلك فى ساحة الهيئة الدولية وأمام الملأ من مندوبى الدول الذين اجتمعوا فى نيويورك لتأمين قضية السلام وتوطيد أركان التعاون بين الشعوب . فمندوب روسيا هناك لا يرى حرجاً فى أن يتهم حكومة الولايات المتحدة علناً بأنها حكومة استعمارية تدعو فى سياستها إلى الحرب ، وبأنها تجرى فى خططها بوحى من أصحاب رءوس الأموال الذين يفيدون عادة من الحروب . ثم ينحرف المندوب إلى بريطانيا فيخص مستر تشرشل بقارص اللوم والتقريع ، ويقول عنه : « إن تشرشل يحرض على شن حرب أخرى ضد روسيا وديمقراطيات أوربا الشرقية . . . وإنه لا يخجل من أن يهدد بعقد محالفة عسكرية بين أمريكا وبريطانيا لاشعال نار حرب جديدة » . وأخيراً يقول المندوب فى خطابه أمام الجمعية العمومية لهيئة الأمم :

« إن هؤلاء الدعاة الذين يستفيدون من الحرب يحاولون تخويف الشعوب بالأكاذيب الملفقة عن استعدادات يزعمون أن الاتحاد السوفيتى يقوم بها لمهاجمة أمريكا ، وهم يعلمون من غير شك أنهم كاذبون ، وأن الاتحاد

السوفيتى لايهدد أحداً بالاعتداء بأية صورة . » ويرد المندوب البريطانى على هذه الاتهامات فيقول : إن روسيا مازالت تؤمن بالنظرية التاريخية البالية نظرية السيطرة والسيادة المطلقة فى العالم ، وإنه إذا لم تكن روسيا مستعدة لقبول مبدأ المساواة التامة عن رضا واختيار ، فلن يكون لهيئة الأمم المتحدة معنى ، ويكون اجتماع مندوبى الدول فى جمعياتها ومجالسها ضرباً من العبث . ولا يكاد ينقضى أسبوع على هذا التراشق بالتهم بين مندوبى الدول الثلاث الكبرى حتى يظهر كتاب سياسى للوزير الأمريكى السابق مستر جيمس بيرنز ، وقد جعل عنوانه : « لنتكلم بصراحة »(١) وقد فند فيه سياسة روسيا ، وبين أنها تعمل جاهدة للهيمنة على أوربا ، لا فى شرقيها ووسطها فحسب ، بل فى غربيها أيضاً . ومما جاء فى كتابه خاصا بمشكلة ألمانيا : « إنه إذا تفاقم الخلاف بين الدول الغربية وبين اتحاد السوفيت بشأن مصير ألمانيا فمن واجب الدول الغربية أن تدعو سائر الدول إلى مؤتمر عام . وإذا أصرت روسيا على موقفها ورفضت سحب قواتها من المنطقة الألمانية التى تحتلها ، فما على الدول الغربية إلا أن تعقد مع ألمانيا معاهدة صلح على انفراد ، ثم يتعاون الجميع على طرد روسيا خارج ألمانيا بالقوة . » وكذلك لم يحاول مستر بيفن وزير خارجية انجلترا أن يخفى قلقه حين قال فى خطبة حديثة له : إنه إذا استعصى الاتفاق بين الدول فى مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة المزمع عقده فى ٢٥ نوفمبر ، فان الموقف بين الدول لا بد أن يتطور تطوراً بالغاً منتهى الخطورة .

ولم يقف اتهام الفريقين بعضهم بعضاً عند حد التراشق بالتهم والمهاترة فى الكتابة والخطابة ، بل يبدو أنهما قد وطنا النفس على اجتياز حدود الكلام والدخول إلى منطقة الأعمال ؛ فعقد مندوبو الاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشرقية مؤتمراً عاما فى فرسوفيا عاصمة بولنده حضره أيضاً مندوبون عن الحزبين الشيوعيين فى فرنسا و إيطاليا وقرروا فيه إنشاء مكتب دائم للاستعلامات الشيوعية يُعنى بتنظيم جهود الأحزاب الشيوعية فى سائر الدول وتنسيق أعمالها . وجعلوا مركزه فى بلغراد عاصمة يوغسلافيا ، ليكون المكتب على اتصال

(١) *Speaking Frankly*, by James Byrnes

وثيق بروسيا من جهة ، وقريباً من المنطقة الدولية فى تريسته من جهة أخرى . والناس يتكهنون لتريسته بأنها ستكون «دانزج» الجديدة التى تمهد للحرب العالمية الثالثة . ويعرف المكتب الجديد « بالكومنفورم » Cominform أى الاستعلامات الشيوعية ، تمييزاً له عن «الكومنترن» Comintern أى الشيوعية الدولية ألتى ألغتها روسيا رسميا فى إبان الحرب الأخيرة فى مارس سنة ١٩٤٣ . ووجه الخطر من هذا المكتب أنه يجعل الأحزاب الشيوعية فى الدول المختلفة تابعة فى خططها وتوجيهاتها للهيئة المركزية وإرشاداتها ، وأن ولاء الشيوعيين سينحرف تبعاً لذلك إلى جانب المركز الرئيسى الدولى دون غيره من الهيئات الوطنية .

ومع أن أعضاء المكتب الجديد لا يزيدون على تسع دول فان إحياء حركة الشيوعية الدولية تحت العنوان الجديد من شأنه أن يثير مخاوف الدول الأخرى التى مازالت ترى فى المبادئ الشيوعية خطراً يهدد كيانها لأنها تحض على العنف وعلى الثورة العالمية . ولقد خطب الرفيق مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على الثورة البلشفية الكبرى فقال عن إنشاء « الكومنفورم » ما يأتى : «إن الحزب البلشفى السوفيتى ليرحب بانشاء هذا المكتب الذى ينظم حركة تبادل الآراء ووجهات النظر بين الأحزاب الشيوعية فى بعض الدول ، بقصد تمهيد السبيل لنمو هذه الحركة . وإن الحزب ليتمنى لهذا المكتب النجاح . إننا نعيش الآن فى عصر تؤدى جميع الطرق فيه إلى الشيوعية . » وقال مشيرا إلى مهمة الحركة الشيوعية العالمية : « إن الشعوب التى أيقظها إدراكها لحقائق الأمور لترى فى نجاح الاتحاد السوفيتى عاملا يمكنها من أن تدنو من اليوم الذى سيتسنى لها فيه أن تتخلص من نير الاستعباد . »

وليس من شك فى أن مولوتوف إنما أراد بحملته على الاستعباد أن يقاوم الخطر الأمريكى الذى تعرضت له بعض دول أوربا منذ أعلن الرئيس ترومان فى مارس الماضى مبدأه الجديد الذى قضى به على سياسة الفرقة الامريكية القديمة التى انتهجتها الولايات المتحدة فى الماضى فنأت بسياستها عن جانب أوربا وانطوى اهتمامها على نفسها وعلى شؤون أمريكا بصفة خاصة . فجاء ترومان وأعلن أمام الكونجرس أو المؤتمر الأمريكى الذى يجمع بين شيوخ الدولة

ونوابها عزمه على التدخل لمساعدة اليونان وتركيا وتقديم قرض لهما بمبلغ أربعمائة مليون دولار ، وقال مخاطبا الكونجرس : إنه فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم وإبعاد أسباب القهر والاستبداد ، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة . . . ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة فى المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها من الحركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها . . . فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب فسيكون لامساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعاً . وقد ذكر الرئيس ترومان صراحة أنه إنما قصد بتدخله صدّ عدوان روسيا عن تركيا واليونان وهما الدولتان الوحيدتان اللتان وقفتا حجر عثرة فى طريق نهضة الحكومات الشيوعية فى شرق أوربا . لذلك وطنت روسيا عزمها على الكفاح والتحدى والمقاومة .

وأخذت توطد أركان الأحزاب الشيوعية فى البلاد الداخلة فى دائرة نفوذها ، فضمت بلاد المجر إلى حظيرة البلاد التى تعتنق الشيوعية ، واعتقلت زعيم الحزب المعارض للشيوعيين فى رومانيا بتهمة التآمر على خيانة الدولة . وحوكم لهذا السبب عينه زعيم المعارضة فى بلغاريا ونفذ فيه حكم الاعدام رغم اعتراض الحكومتين البريطانية والامريكية . ولا تزال حرب العصابات مشتعلة فى شمال اليونان يلهبها الشيوعيون المتاخمون للبلاد . وفى منطقة تريسته الدولية أبت روسيا أن توافق على تعيين حاكم عام للمنطقة ما لم يكن الحاكم من مرشحيها . وأخيراً قام الشيوعيون فى فرنسا وايطاليا باضرابات وقلاقل كادت تفضى إلى تفوقهم السياسى لولا تضافر العناصر المناوئة للشيوعية ضدهم .

ورأت حكومة الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا أن الدرع الوحيدة التى تستطيع الحكومات الغربية أن تتقى بها ضربات الشيوعيين أن تنهض كل منها بانعاش الحالة الاقتصادية فى بلادها ، فتعاون الأهلين على استعادة انتاجهم الزراعى والصناعى ، حتى تنشط حركة التبادل بين الشعوب وتعود البلاد سيرتها الأولى . ولما كانت الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى تستطيع إقالة أوربا من عثرتها والأخذ بيدها فى محنتها المالية الحاضرة ، بدا لمستر مارشال

الوزير الامريكى الجديد أن يغتنم الفرصة فيخفف من وقع السياسة الجديدة التى أعلنها مستر ترومان وخص بها اليونان وتركيا ، فصرح فى يونيه الماضى بأن حكومة الولايات المتحدة رغبة منها فى إنعاش أوربا اقتصاديا مستعدة لمعاونتها ماليا إذا اتفقت الدول الراغبة فى هذا التعاون على إنشاء برنامج مشترك للتعمير والانتاج فى بلادها . ولاحت حينذاك بارقة أمل فى امكان توحيد أوربا اقتصاديا وإن عزّ توحيدها سياسيا . وقد ساعد على تعزيز هذا الأمل أن وزير خارجية اتحاد السوفيت قد اشترك بنفسه مع وزيرى انجلترا وفرنسا فى اجتماع عقد فى باريس فى الصيف الماضى لبحث هذا المشروع الخطير الذى عرف « بمشروع مارشال » . ولكن وزراء الدول الثلاث ما كادوا يجتمعون حتى بدا اختلافهم من جديد ، ورأت روسيا أن تدخل أمريكا الاقتصادى ما هو فى حقيقة الأمر إلا مقدمة لتدخلها السياسى فى شؤون دول أوربا الصغرى . وعلى ذلك غادر الوزير السوفيتى باريس وقاطعت روسيا المؤتمر الذى دعت إليه انجلترا وفرنسا وقاطعته معها دول شرق أوربا . وأخيرا اجتمع مندوبو ست عشرة دولة لاعداد البرنامج الاقتصادى الذى طلبته حكومة الولايات المتحدة . وقد تقدمت الدول ببرنامجها فى الشهر الماضى . ولكن الأزمة المالية الخانقة فى بلاد كفرنسا وإيطاليا والنمسا جعلت أمريكا تعجل بانقاذ الحالة . وتقدم رئيس الولايات المتحدة أخيراً يهيب بأعضاء الكونجرس الأمريكى أن يلبوا حاجة أوربا الملحة للمساعدة فيعقدوا اجتماعاً غير عادى يقررون فيه إسعاف أوربا بمبلغ بدائى ، وذلك إلى أن يتيسر للمجلس دراسة مشروع مارشال برمته على مهل . وبهذه الطريقة تقوى حكومات أوربا على إنقاذ شعوبها من خطر المجاعة والتعطل من جهة وتستطيع الولايات المتحدة التغلب على حركة التضخم المالى وارتفاع أسعار الحاجيات فيها من جهة أخرى .

وعلى ذلك ظهرت معالم الكتلتين الشرقية والغربية واضحة للعيان ؛ فان ست عشرة دولة [1] فى أوربا قد آثرت أن تلبى دعوة أمريكا وتشترك معاً

---

(١) هذه الدول هى : بريطانيا ـ فرنسا ـ هولندة ـ بلجيكا ـ لكسمبورج ـ النمسا ـ الدنمرقة ـ النرويج ـ السويد ـ إرلندة ـ اليونان ـ إيطاليا ـ البرتغال ـ سويسرا ـ إيسلنده ـ تركيا .

برياسة بريطانيا فى إعداد برنامج مشترك للانشاء والتعمير . وقد شملت الكتلة الغربية عدا الدول المطلة على المحيط الأطلنطى تركيا واليونان و إيطاليا، ولم تنضم أسبانيا إليها للحجر السياسى الذى فرضته هيئة الأمم المتحدة فى العام الماضى وأقصت به أسبانيا عن المؤتمرات الدولية . ولأجل أن يكون التوازن ملحوظا بين الكتلتين رأى اتحاد السوفيت أن يشعر دول الكتلة الشرقية بأن مصالحها المشتركة هى أيضاً موضوع الدرس والاهتمام ، فأنشأت مكتب الكومنفورم الذى سبقت الاشارة إليه (١) .

وقد بدا الانقسام واضحا بين الكتلتين فى المسائل والقضايا التى عرضت أمام هيئة الأمم المتحدة سواء أمام مجلس الأمن أو فى جمعيتها العمومية . وهنا يستطيع الباحث أن يستخلص من أسباب النزاع بين الفريقين مسألتين هما — إن صح اعتقادنا — مصدر الداء وأصل الخلاف : القنبلة الذرية وحق الفيتو . وسنتناول هنا مسألة الطاقة الذرية التى فوجئت بها روسيا والعالم كله عندما ألقت القوات الأمريكية فى الشرق الأقصى القنبلة الأولى على هيروشيما فى أغسطس سنة ١٩٤٥ أى بعد دخول روسيا الحرب ضد اليابان بأسابيع قليلة . وكأنما الضباب المسمم الذى خلفته القنبلة واحتوى على هيروشيما المنكودة قد غطى أيضاً بسمومه جو العلاقات السياسية بين روسيا وحلفائها السكسونيين ، فأوجد بينهما منذ إلقاء القنبلة هوة ما برحت تتسع وتغور نحو القاع ، حتى لمست الهوة الصخر الصلد الذى لا يلين ولا ينبجس منه الماء ! وليس أدل على عظم هذه الهوة وسعتها من مظاهر الجفاء والتشكك وفقدان الثقة التى سادت بين الحلفاء منذ اجتماع الزعماء فى بوتسدام فى صيف سنة ١٩٤٥ إلى الآن . ولو أن الولايات المتحدة و بريطانيا وكندا وهم أصحاب سر القنبلة قد أبرءوا ضمائرهم ووضعوا سر القنبلة بين أيدى هيئة الأمم المتحدة من أول الأمر لأمكن رأب الصدع وتفادى الخطر فى صفوف الحلفاء . ولكن أناساً ظهروا فى أمريكا وأوربا ، ومنهم كثير من رجالات الحرب ، نادوا بالاحتفاظ بالسر الرهيب حتى يمكن مفاجأة روسيا به إذا

(١) ويتألف المكتب المذكور من الدول الآتية : بلغاريا ـ تشيكوسلوفاكيا ـ المجر ـ بولندة ـ رومانيا ـ يوغسلافيا ـ اتحاد السوفيت . يضاف إليها الحزبان الشيوعيان فى فرنسا وإيطاليا .

اقتضت الحال قبل أن تصل إلى سر صنعها . وكان العلماء قد أفتوا بأن كشف الطاقة الذرية لن يبقى طويلا سرا مجهولا ، ولكن الاهتداء إلى صنع القنبلة وإنتاجها قد يستغرق سنين طويلة . وعلى ذلك سرعان ما ظهرت محاولات ومؤامرات أراد بها مدبروها من السوفيت أو غيرهم الوقوف على سر القنبلة فى كندا . فدعا رئيس الولايات المتحدة رؤساء الحكومات الثلاث إلى اجتماع عقد فى واشنجتون وقرروا استعدادهم لإشراك الدول الأخرى معهم فى سر القنبلة متى وافقت هيئة الأمم المتحدة على اتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع استخدام الطاقة الذرية فى أغراض التدمير والعدوان . وتألفت على أثر ذلك لجنة مثلت فيها الدول التى يتكون منها مجلس الأمن ومعهم مندوب من حكومة كندا وهى إحدى الدول الثلاث صاحبات السر . وعرفت هذه اللجنة باسم مندوب أمريكا برنارد باروخ Bernard Baruch وهو من سياسي أمريكا القدماء الكفاءة . وقد عقدت اللجنة جلساتها فى نيويورك فى ربيع سنة ١٩٤٦ وقدمت تقريرها وفيه اقترحت تأليف هيئة دولية تعمل لاحتكار جميع المواد الخام التى تدخل فى صنع القنبلة حيثما وجدت ، كما تحتكر أسرار صنعها . واقترحت اللجنة أن تتعهد الدول بالامتناع عن إجراء البحوث الخاصة بالطاقة الذرية إلا باذن من الهيئة ، على أن يكون للهيئة حق التفتيش فى البلاد المختلفة وتوقيع العقوبات الرادعة على الدولة التى تحدثها نفسها بمخالفة هذه التعهدات . وذكرت اللجنة أنه متى تم تكوين الهيئة المذكورة فان واجب حكومة الولايات المتحدة أن تعدم القنابل الذرية المدخرة لديها ، وتقف إنتاج القنبلة بعد ذلك بتاتاً . ثم أضافت اللجنة شرطاً أساسيا لقبول مقترحاتها ، وهو أن تنزل الدول التى لها حق الفيتو فى مجلس الأمن عن حقها فى تطبيقه فى حالة اقتراح العقوبات التى توقع عند مخالفة التعهدات المذكورة ، حتى لا تفلت دولة كبيرة أيا كانت من العقوبات متى نكثت عهدها وأخلت بشروط عدم إساءة استخدام الذرة . ومع أن جميع الدول التى مثلت فى اللجنة المذكورة قد وافقت على هذه الشروط فان حكومة اتحاد السوفيت قد عارضت بشدة فى حق التفتيش الذى سيخول للهيئة ، وفى نزولها عن حق الفيتو . واقتصرت روسيا فى حماستها ضد هذا السلاح المدمر على المطالبة بعقد معاهدة دولية يحظر فيها استخدام القنبلة الذرية قانوناً . وما فتئت روسيا

إلى اليوم تتهم الولايات المتحدة وبريطانيا بأنهما تهددان العالم بهذا السر ، وتعملان لمناهضة حركة نزع السلاح أو تخفيفه ، باحتفاظهما بسر القنبلة الذرية . ولكن الحكومتين تصران على ضرورة قبول الشروط التى وضعتها اللجنة قبل إفشاء السر ، وتقولان إنه ما دعا روسيا إلى معارضة حق التفتيش والتشبث بحق الفيتو إلا إصرارها على حفظ أسرارها الحربية ، والتمسك باقامة السد الحديدى بينها وبين دول العالم . وإنه يكفى برهاناً على تجرد الدولتين من أية مصلحة ذاتية لهما أنهما قبلتا إعدام القنابل الذرية الموجودة لديهما ، والنزول طوعاً عن حقهما فى استخدام الفيتو فيما يخص العقوبات المتعلقة بمخالفة شروط الذرة .

وقد سخر الرفيق مولوتوف أخيراً من موقف الدولتين إزاء القنبلة الذرية ، فقال فى خطبته الأخيرة بمناسبة الذكرى الثلاثينية للثورة الروسية : « ... وخليق بالذكر هنا أن نقرر أن الاستعماريين فى أمريكا لا يثقون بطاقة بلادهم الداخلية ، ولهذا تراهم يعتمدون كل الاعتماد على القنبلة الذرية ، مع أن هذا السر قد أضحى مفضوحاً منذ زمن طويل . ولا يخفى أن الاستعماريين يحتاجون إلى هذه الثقة بالقنبلة الذرية التى هى سلاح للعدوان لا للدفاع كما هو معروف . » فهذا كلام له خطره ، معناه أن روسيا تتسلح بالقنبلة كما تتسلح أمريكا وبريطانيا . ومما لاشك فيه أن القنبلة الذرية سواء أكانت سلاحاً للهجوم أم للدفاع فهى قبل كل شئ أفتك سلاح اخترعه الانسان ضد المدنية والانسانية جمعاء . وإذا كان بعض الناس قد نقموا على الولايات المتحدة فى نهاية الحرب أنها استخدمت قنبلتين اثنتين لضرب اليابان وحملها على التسليم فى الحرب الأخيرة ، فهل يجوز أن تختلف الدول الكبرى فى وقت السلم وأمام الهيئة المنوطة بصيانة السلام بين شعوب العالم على مراقبة الطاقة الذرية وتأمين الانسانية ضد أخطارها ؟

إن الخلاف بين دول الكتلتين خطير ومتعدد الجوانب . ولكن أشد مظاهر هذا الخلاف هو ترك موضوع الطاقة الذرية دون رقابة دولية وإهدار هذا السر وجعله خطراً مشاعاً بين الناس ، قد يكتشفه الروس غداً والألمان بعد غد ، ثم يليهم الطليان واليابانيون والهنود واليهود من بعدهم ، إلى آخر القائمة . وهكذا لا يقتصر الخطر من الكلام عن الحرب على اصطدام قوى

بين الكتلتين أو قيام حرب عالمية ثالثة ، بل نكاد نوقن أن العالم سيستحيل بعد ذلك إلى حقول تجريبية هائلة تستنبت فيها الشعوب القنبلةالذرية ، كما استنبت كدموس فى الأسطورة الاغريقية القديمة أسنان التنين التى بذرها فى مدينة طيبه الاغريقية فلم تلبث الأسنان أن أثمرت وأخرجت سلالة من الوحوش الكاسرة كان كدموس نفسه مؤسس طيبه أول من تعرض لآفاتها و بطشها .

محمد رفعت

كيف نشأت المدنية فى مصر

يمتاز أسلوب العلماء وطلاب العلم فيما يكتبون بدقة التعبير وتحديد دلالات الألفاظ والمصطلحات تحديداً دقيقاً ينتفى معه اللبس وتجتنب مواطن الخلط وسوء الفهم . ومن المصطلحات التى يعرض لها المعنيون بدراسة التاريخ البشرى العام ، ألفاظ ثلاثة يحسن بنا أن نحدد معانيها وما يقصد بها تحديداً واضحاً . وتلك هى : الحضارة ، والمدنية ، والثقافة . وهى ألفاظ درج كتاب العربية على أن يضفوا عليها معانى فضفاضة بعض الشئ . ويحسن بنا قبل أن نعالج نشأة المدنية أن نحدد ما نقصد بكل من تلك الألفاظ الثلاثة ، أو أن نصطلح — فى القليل — على دلالات كل منها ولو مجرد اصطلاح .

ولفظ الحضارة أكثرها شمولا وأوسعها دلالة . فهو يشمل مجموع نتاج الجهود البشرية على سطح الأرض أو فى جزء منه ؛ وهو يجمع بين الناحيتين المادية وغير المادية من حياة الانسان ؛ ثم هو يمتد فى الزمان كما يمتد فى المكان ؛ ولا يجوز اطلاقة إلا بهذا المعنى الواسع الشامل ، فيقال الحضارة البشرية ، أو يقال حضارة الشرق ، أو حضارة مصر القديمة ؛ يقصد بذلك أسس الحياة المادية وأدواتها ووسائلها التى ابتكرها الانسان ليحصل على قوته ومعاشه فى البيئة ، كما يقصد الحياة ذاتها بمظاهرها ونظمها وألوانها المادية والمعنوية جميعاً ، بل يقصد بها وصف تلك الحياة فى فترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسبما تحياه تلك الحضارة . أما لفظا المدنية والثقافة فأضيق كثيراً فى مدلولهما ؛ بل هما فى الحقيقة يدلان فيما بينهما على ما يجمعه لفظ الحضارة بمفرده . والمدنية يقصد بها — أو لعلنا نستطيع أن نصطلح على ذلك فى هذا المقال — ذلك الجانب المادى من حياة الانسان ، وما تتفتق عنه حيلته فى تيسير أسباب حياته العملية ؛ فهى تشمل الحرف بأنواعها المختلفة ،

من صناعة ، وصيد للحيوان أو رعى له ، ومن زراعة واستنبات للنبات أو استغلال له ، ومن تجارة وتبادل ومواصلات وطرائق للتعامل والاتصال ؛ كما تشمل بعض الفنون العملية فى الحياة ، كبناء المسكن أو غير ذلك . أما الثقافة فتشمل الجانب غير المادى من حياة الانسان ، ففيها الناحية الروحية ، والناحية العقلية والفكرية ، وناحية الذوق و إشباعه بالفنون الجميلة المختلفة ، ثم ناحية التعبير عن كل هذه الجوانب من حياة الانسان ، بل من الحياة المادية ذاتها بوساطة اللغة وفنونها الأدبية [1] ومع ذلك فالحد الفاصل فى الدلالة بين المدنية والثقافة لا يمكن أن يكون واضحاً دقيقاً . ذلك أن بعض ألوان الثقافة ، كالفن مثلا ، قد ينصب على ناحية مادية من حياة الانسان ، كما هو حاصل فى حالة فنون العمارة والزخرفة مثلا ، فهى من بعض نواحيها جزء من المدنية المادية ، ولكنها مع ذلك تشبع غاية نفسية أو إحساساً ذوقيا عند الانسان ، كما يتجلى فيها نزوع النفس أو الروح أكثر مما تتجلى حرفة البناء أو حرفة الزخرفة من حيث هما عمل مادى آلى . والواقع أن الانسان مهما اصطنع فلن يستطيع ، بحكم تكوينه ، أن يفصل فصلا تاما بين حياته المادية وحياته المعنوية أو غير المادية . ولكن من الخير لنا مع ذلك أن نلتزم حدود الدقة بقدر الامكان عند ما نتكلم عن المدنية أو الثقافة ونصيب كل منهما فى تراث حضارتنا العام .

وإذا نحن اتفقنا على هذا الاصطلاح فى التعريف ، فقد يكون واجباً أيضاً أن نتفق منذ البداءة على ما نقصد « بالمدنية المصرية » . فنحن إنما نقصد بها تلك الحياة المادية التى حياها المصريون أو سكان مصر على ضفاف نهر النيل ، والتى ارتبطت فيها ألوان معيشتهم وما حققوه فى مجال المادة والعمل بظروف هذه البيئة المصرية التى ميّزت حياتهم وطبعتها بطابعها المصرى الخاص . بل إننا نقصد بهذه المدنية ما كان من « تفاعل » بين البيئة والانسان ، انتهى إلى هذه الحياة المستقرة العاملة ، التى سارت مع الزمن ، واتصلت فى بعض الأعصر بحياة غير المصريين وأبناء الوادى من شعوب

---

(١) للكاتب مقال موضوعه «مصر حلقة الاتصال الثقافى بين الشرق والغرب» ، وقد حاول فيه أن يعرف الثقافة بمعناها الأعم . أنظر « الكاتب المصرى » عدد ٣ (ديسمبر ١٩٤٥) .

الشرق أو شعوب الغرب ، ولكنها مع ذلك احتفظت بميسمها الخاص ، وبكثير من أسسها ومقوماتها الأولية ، لا لشىء إلا لأنها كانت أصيلة فى بيئتها النيلية ، التى وفرت لها من عوامل الدوام والاستمرار والتجديد ما سنحاول أن نكشف عن بعضه فى هذا المقال .

ويرجع أول ارتباط للحياة بالبيئة المحلية فى مصر إلى ما نسميه بالعصر الحجرى القديم الأعلى .. ومع أن علماء عصر ما قبل التاريخ لا يميلون كثيراً إلى تقدير حضاراتهم بالسنين والتواريخ ، فقد لا نكون بعيدين كثيراً عن الحقيقة إذا نحن قدرنا تاريخ هذا الدور الأول من أدوار الحياة والمدنية فى مصر بأنه يرجع إلى حوالى العشرين ألف سنة . وفى هذا العصر بدأت صناعة الآلات الحجرية فى مصر تتخذ طابعاً خاصا بها يميزها من صناعات بقية العالم القديم ، بما فى ذلك فلسطين ذاتها مع أنها بلد مجاور . ويظهر أن مصر لم تتلق غزوات كثيرة فى ذلك العهد ؛ لأن نهر النيل لم يكن قد اتخذ صفته الخاصة التى أغرت به سكان الصحارى فيما بعد . ذلك أن الصحراء إذ ذاك لم تكن جافة ولا عديمة النبات ، إذ كان هناك ما يعرف باسم العصر المطير ، وكان نظام المطر والنبات فى صحارى مصر والشرق العربى المجاور يشبه ما نعرفه الآن فى حوض البحر المتوسط . وبذلك وجد الانسان كفايته من النبات والحيوان وصيد البر ، ولم يستشعر حاجة لأن يسعى إلى وادى النيل ومجراه . وبعبارة أخرى لم يكن هذا الوادى مطمعاً لأولئك الصيادين القدماء فى العصر الحجرى القديم الأعلى . وبذلك استطاعت العناصر التى تعيش فيه وقريباً منه أن تتابع حياتها فى أمن نسبى ، فاتخذت صناعاتها ذلك الطابع الخاص ؛ وكان ذلك أول دور من أدوار تخصص المدنية الأولى فى مصر .

ثم جاء دور لاحق فيما نسميه العصر الحجرى الحديث . وترجع بداءته إلى حوالى سبعة آلاف سنة خلت . وفيه تعلم الانسان أن يستنبت النبات بدلا من أن يكتفى بالجمع والتقاط الحب والثمرات من نبات الطبيعة البرى ، كما تعلم استئناس الحيوان وتربيته بدلا من اقتناصه وصيده . وكان هذان انقلابين خطيرين فى حياة الانسان إلى أبعد الحدود ، بل إن بعض الباحثين يرى فيهما أخطر انقلابين فى تاريخ الانسانية كله . فبعد أن كان الانسان يعيش عيشة هدم واستغلال قصير النظر لموارد الطبيعة ، أصبح يعيش بطريقة

« إنتاجية » ، وأخذ يعاون الطبيعة ويستدر خيراتها بدلا من أن يستغلها بما يؤدى فى النهاية إلى الاقفار والاجداب . ولابد أن موارد الانسان قبل أن يهتدى إلى استنبات النبات واستئناس الحيوان كانت محدودة ، كما كانت حياته شاقة عقيمة . أما بعد ذلك فقد تعلم كيف يصبح صديقاً للطبيعة بدلا من أن يكون عدوا لها وحرباً عليها ؛ فعمل على أن يزيد من مواردها ويسخّر فيض تلك الموارد لصالحه ؛ وتضاعفت بذلك موارده فى الحياة ، فازداد عدد السكان بل تضاعف . كما أن الزراعة وتربية الحيوان كانتا موردين منتظمين ومضمونين إلى حدّ كبير ، بخلاف الصيد الذى يتوقف كثيراً على عنصر الحظ والمصادفة . وليس من شك فى أن حياة الزراعة والرعى كانت أكثر ضماناً وأوفر أماناً من حياة الصيد التى يتهددها الجوع فى كل حين . ولقد كان ضمان العيش وأمانه عاملين أساسيين فى بناء الحياة المطمئنة ؛ تلك التى يستطيع فيها الانسان أن يفرغ إلى شئ من العيش المتمدن حقا ، بل إلى العيش الذى يجمع بين المدنية المادية والثقافة الروحية والعقلية ، وهما كما ذكرنا أساس كل حضارة .

وليس هذا مجال الافاضة فى نشأة الزراعة والرعى ، وما كان لهما من أثر فى تاريخ الحضارة ؛ فذاك موضوع قد يستحق مقالا بذاته . ولكن من الخير هنا أن نشير إلى بعض العوامل فى البيئة المصرية ، مما ساعد على نشأة كل من هاتين الحرفتين العظيمتين من حرف الانسان فى بداءة حياته الآمنة وحضارته المستقرة .

كان العصر المطير قد انتهى قرب نهاية العصر الحجرى القديم ؛ وجاءت فترة جفاف فى صحارى مصر ، يقال إنها كانت سبباً فى نزوح السكان من الصحارى والتجائهم إلى جوانب وادى النيل حيث الماء والحياة . ولم يقتصر النزوح بالطبع على الانسان وإنما شمل كذلك الحيوان الذى كان يعيش على نبات الصحراء . وبذلك أصبح الانسان والحيوان فى واد واحد ، وفى مجال ضيق محصور ، كان لابد فيه للانسان من أن يحارب المفترس من الحيوان حتى يقضى عليه ؛ كما كان على الوديع من الحيوان أن يعيش فى جوار الانسان ويأنس إليه ، مما يسّر مهمة الاستئناس . وهكذا كان جمع الطبيعة للانسان والحيوان فى مكان واحد إيذاناً بعهد جديد ، عاون الانسان فيه الطبيعة على نحو يزيد من إنتاجها ، بدلا من أن يسير على استغلالها

استغلالا هداماً كما كانت الحال فى عهد الصيد والقنص . وطبيعى أن وادى النيل كان من خير المواطن لهذا النوع من الحياة . ولكنه كان فى الوقت نفسه وطناً صالحاً لأن يهتدى فيه الانسان إلى نوع آخر من الحياة المنتجة هو الذى تمثل أيضاً فى استنبات النبات . ففى هذا العهد الذى قلّت فيه الأمطار فى صحارى مصر ، وإن كانت قد تجددت بعض الشئ فيما بعد فزاد المطر زيادة طفيفة للغاية ، اعتمد النيل اعتماداً كليا على منابعه العليا عند خط الاستواء وفى الهضبة الحبشية ؛ واتخذ فيضانه دورته المعروفة من ارتفاع ذروة الماء فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم انحساره عن جوانب الوادى فى أواسط الخريف وأواخره ، وهو موعد مناسب جدا لزراعة المحاصيل الشتوية . بمعنى أن النيل كان يطغى على جوانبه فيغذيها بالماء والغرين ، أى يعدها للانبات ، ثم ينحسر عنها فى أصلح الأوقات لأن تنمو فيها نباتات الشتاء وحبوبه كالشعير والقمح ، وهى لحسن المصادفة (لاسيما أولها) من النباتات التى كانت تنمو برية بطبيعتها فى شمال إفريقية الشرقى وما جاوره من أقطار آسيا الغربية . والظاهر أن طبيعة النيل وموعد فيضانه قد ساعدت على أن يتعلم الانسان فى مصر زراعة مثل هذه النباتات . ومن اليسير أن نتصور أن تكون نشأة الزراعة فى مصر قد جاءت نتيجة لتطور بطئ تعلم فيه الانسان هذا الفن من الطبيعة نفسها ؛ ففى فصل انحسار ماء الفيضان تذرو الرياح بعض النباتات البرية وحبوبها من حافة الوادى إلى أراضيه الخصبة التى انحسر عنها الماء ، فتنبت تلك النباتات بطريقة طبيعة برية ، وتتغذى من ثرى التربة النيلية السخية ، ثم تأتى أمطار الشتاء المصرى فتغذى النبات وتمده بالماء حتى يكتمل نموه ونضجه فى أشهر الربيع فيحصده الانسان . ولا يبعد أن تكون القبائل المنتشرة على حافة الوادى فى ذلك الوقت قد راقبت هذه الدورة الطبيعية عاماً بعد عام ، فاهتدت عن طريق المشاهدة إلى أن تقلد الطبيعة ؛ فكان الانسان فى أول الأمر يحرس حقول الشعير البرى مثلا بعد أن تنبت برية وحشية ، فيمنع الحيوان من أن يأكلها والطير من أن يقتات من سنابلها وحبها عند نضجه ، حتى يتم الحصاد . ولا يبعد أن يكون ذلك قد مثل مرحلة من مراحل نشأة الزراعة بطريقة يتعاون فيها الانسان مع الطبيعة ، فيكمل عملها ويبنى عليه ، حتى

ينتهى الأمر به إلى أن يتولى بنفسه غرس الحب واستنباته ، وبذلك يصبح زارعاً بالمعنى الكامل الصحيح .

واذا صح هذا التصوير لنشأة الزراعة فى مصر — وهو ما تهدينا إليه الدراسات المفصلة لعصر ما قبل التاريخ ونشأة المدنية الزراعية فى وادى النيل — فان الانسان يكون قد تعلم الزراعة من الطبيعة ، ويكون النيل قد مهد لأن تقوم على جوانبه تلك الحياة الزراعية المستقرة القديمة ، التى رأينا أنها ترجع إلى نحو سبعة آلاف من السنين .

ولكن المهم أن الزراعة فى مصر لم تكن من النوع العادى الذى ظهر فى كثير من جهات الأرض ، فلم ينته بالحياة إلى أن تتقدم وترتفع بالجماعات الزراعية من مرحلتها البدائية إلى مرحلة رفيعة نسبيا من الناحية الاجتماعية . فالزراعة فى غير مصر كانت تقوم كلها على المطر . وما كان على الزارع إلا أن ينقر حفرات صغيرة فى الأرض يضع فيها الحب ثم يتركه للمطر يسقيه ويغذيه حتى يتم نضجه فيحصده . وهذا النوع من الزراعة يعرف بالنوع الفطرى ؛ وهو وإن كان قد ارتفع بأهله فوق مستوى الجمع والالتقاط ، وآمن حياتهم ووقاهم شر الجوع ، فانه مع ذلك لم يعلمهم التضامن الاجتماعى ، فاستطاع الزارع أن يزرع بمفرده أو أن يستعين فى حرفته بأسرته الصغيرة دون حاجة إلى الارتباط بمجتمع كبير . وبذلك بقى المجتمع مفككا ، ولم ترتفع حياة الزارعين إلى مستوى من التضامن الاجتماعى ومن تداخل المصالح المادية بين الأفراد والجماعات الصغيرة يفرض على تلك الجماعات وأفرادها نظاماً معيناً من الحكم هو أساس الحياة المتمدنة بمعناها الاجتماعى المعروف . فضلا عن أن مثل تلك الزراعة الفطرية لا يجد صاحبها حاجة لأن يستمسك بحقل معين يستقر فيه ويقصر جهوده عليه ، وإنما هو يستطيع — بل يفضل — التنقل من عام لعام ، فيزرع فى كل سنة قطعة جديدة من الأرض لم يضعفها الانبات فى موسم سابق . وبذلك كله لم تكد صلة الزارع بحقله أو موطنه المستقر توجد ؛ وذاك ما حدث فعلا فى بعض جهات إفريقية الداخلية مثلا ، حيث نشأت الزراعة وبقيت على أصولها الفطرية ، فلم تتقدم بالمجتمع فى سلم المدنية والحياة المستقرة ، بل بقى بدائيا متنقلا ، واستمر فطريا فى حياته وحضارته العامة . أما فى مصر فان الزراعة قامت فى أرض تغمرها

مياه النيل ؛ وكان من الضرورى منذ البداءة أن ينظم فيضان هذا النهر إذا أراد الزارعون أن يتوسعوا فى أرضهم التى يفلحون ؛ وهذا التوسع لا يمكن إلا أن يكون داخل حدود الوادى وفى الأرض التى يجدد خصبها هذا النهر العظيم فى كل عام . وبذلك كله لم يكن هناك مجال لأن ينتقل الزارع من حقل لحقل فى كل عام ، بل كان عليه أن يستمسك بحقله ، ينظم فيضان الماء عليه فى كل عام ، ثم ينتظر انحسار الماء عنه ليغرس الحب فى أرضه الطيبة المجددة . وكان تنظيم ماء الفيضان هذا عنصراً هاما من عناصر الجد والكفاح فى الزراعة والحياة الزراعية المصرية منذ نشأتها الأولى ؛ لأنه كان عملا ضخماً يقتضى تضافر الجهود فى المجتمع . فالزارع لا يستطيع وحيداً أن يقيم الجسور ليقسم الوادى إلى حياض يمر فيها ماء الفيضان مروراً منظماً يمكن معه أن يرسب الغرين بانتظام على سطح التربة ؛ ولا يستطيع أن يحفر القنوات التى تحمل الماء من النهر إلى الحوض ثم تصرفه عنه بعد أن يكون قد أرسب ما به من غرين . لذلك كان من الضرورى أن تتضافر جهود الزارعين فى مصر من أجل تنظيم رى الأرض . وبدون هذا الرى المنظم لا يمكن للزراعة أن تتقدم ؛ لأن الأمطار فى الخريف لا تكفى لانبات النبات ، وإن كانت كافية لأن تغذيه وتمد التربة ببعض الرطوبة أثناء فصل الشتاء . لذلك كله كانت الزراعة فى مصر مختلفة عن تلك الزراعة الفطرية التى سادت معظم إفريقية ؛ فهى زراعة من نوع يستلزم العمل الشاق والجهد المنظم والتضافر الاجتماعى ؛ وهى عوامل أساسية فى نشأة الحضارة بمعناها العام ، بل هى أساسية بصفة خاصة لنشأة النظام والادارة و « الحكومة » فى مثل هذا المجتمع القديم . وهكذا قام « الحكم » على أساس الحاجة والضرورة فى حياة الزراع منذ أقدم عهود الاستقرار على ضفاف النيل ، وانتهى أمر الزراعة فى مصر بأن أصبحت أساساً للحياة المتمدنة ، حتى غدا وادى النيل الأدنى موطناً من مواطن المدنية والحضارة الأولى فى إفريقية والشرق القديم .

ولكن نشأة المدنية فى مصر لا تقتصر على الزراعة وفلاحة الأرض ، وإنما هى تشمل الحياة والاستقرار والسكنى فوق أرض هذا الوادى الذى يغمره الفيضان فى كل عام . وقد استدعى استواء الأرض أن تقوم قرى

الزراع فوق كومات صناعية من التراب تبنى المساكن فى أعلى ذراها لتكون بمأمن من الفيض الجارف . وما كان لزارع بمفرده ، ولا لمجموعة صغيرة من الزراع ، أن تقيم مثل هذه الكومة التى يجب أن تكون من الضخامة بحيث تثبت للماء والتيار ؛ وإنما ينبغى أن تتضافر جهود عدد كبير من الزراع فى إقامة هذا التل الصناعى ، وينبغى أن يعيش هؤلاء الزراع فى بيوت تكتظ وتتكاثر فوق هذه التلال المبعثرة فى أرض الوادى . وبذلك فرضت الطبيعة على أهل هذا الوادى أن تتضافر جهودهم ، وأن ينتظم الحكم بينهم فى قرى تتمثل فيها روح التعاون والتضامن والتكافل ، وتنشأ بين أفرادها الحرف المختلفة التى تتصل بالحياة الزراعية من جهة ، وبحياة القرية العامة من جهة أخرى . فهذه القرى يجب أن تنتظم أسباب العيش فيها والدفاع عنها وقت الحاجة ، كما يجب أن ينظم اتصال بعضها ببعض فى التبادل وغيره بوساطة القوارب أو فوق الجسور أيام الفيضان . وهذا كله يستلزم قيام حكومة وادارة ، ويستلزم بمعنى آخر تنظيم الحياة العامة لزراع الوادى وسكان قراه ؛ وهذا أساس آخر من أسس الحياة المتمدنة ، تلك التى نشأت فى قرى مصر ، ثم امتدت فشملت أقاليمها ، ثم وجهيها القبلى والبحرى ، قبل أن تشمل الأرض كلها ، وتقوم حكومة مصر الزراعية الموحدة عند مطلع التاريخ .

وهكذا وُضعت أسس الحياة المستقرة والمدنية التى تقوم على العمل المنتج والتضامن الاجتماعى ؛ بل هكذا وضعت أسس الحكم والنظام فى مصر قبل أن يبزغ فجر التاريخ . وكانت حياة المصريين وجهودهم ومدنيتهم فى ذلك كله متأثرة أشد التأثر وأبلغه بظروف البيئة الطبيعية ؛ تلك التى امتازت على الخصوص بتكامل عناصرها فى هذا الوطن الصالح ، ولقد تمثل ذلك التكامل فى صور وأشكال متعددة ، ربما كان أظهرها ما نلحظه فى دورة الفصول فى مصر . فالنيل يعلو بالفيضان كما ذكرنا فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم ينحسر فى وقت الانبات بالذات ، فتبدأ الأمطار عقب ذلك وتستمر طول فصل نمو النباتات الشتوية، حتى يقبل موسم الحصاد فيحل الجفاف ، وينخفض مستوى النهر إلى أدناه ، وتبقى الأرض بواراً تصليها أشعة الشمس خلال النصف الأول من الصيف ، فتجففها وتطهر تربتها من الآفات والحشائش

الضارة التى تمتص خير الأرض ولا تفيد شيئاً ، بل تشقق حرارة الشمس سطح الأرض وتسمح للهواء بالنفوذ إليها وتغذيتها بعناصره المفيدة ؛ حتى إذا ما ارتفع ماء الفيضان ملأ شقوق الأرض وتسرب إلى الأعماق وغطى السطح بطبقة من الغرين تغذى التربة وتعدها للعام الزراعى الجديد . وهكذا تضافرت عناصر البيئة الطبيعية وأتم بعضها بعضاً فى دورة منتظمة على طول العام ، من نظام النهر فى الفيضان والتحاريق ، إلى نظام المناخ بين الشتاء المعتدل الممطر والصيف المشمس الجاف . وبهذا كله كانت الطبيعة فى خدمة الانسان ، وتهيأت البلاد لأن تكون مسرحاً صالحاً لنشأة المدنية الزراعية ، وما يتصل بها من حياة الاستيطان والاستقرار . ولم يكن على الانسان إلا أن يأتى بجهده فى الوقت المناسب ، ويسخر الطبيعة لصالحه ، فتجرى الأمور فيها على نظام رائع بديع ، زاد من روعته وإبداعه أنه كان متكرراً بانتظام وفى دقة عجيبة على مر السنين والأعوام .

وقد تجلى مبلغ تكامل عناصر البيئة فى ظاهرة أخرى غير الزراعة . ذلك أن النيل كان يجرى من الجنوب إلى الشمال ، فيدفع تياره الفلك فى ذلك الاتجاه ، على حين كانت الريح السائدة فى مصر تأتى من الشمال إلى الجنوب فتملأ أشرعة تلك الفلك وتعينها على التصعيد ضد التيار . وهكذا أصبح مجرى النيل شرياناً للمواصلات والتجارة بين الدلتا والصعيد . ولو أن النهر كان يجرى من الشمال إلى الجنوب ، أو لو أن الريح السائدة فى مصر كانت تأتى من الجنوب إلى الشمال ، لما استطاعت مصر أن تستكمل أسباب وحدتها فى ذلك العهد السحيق ، عندما اتصل أهل الجنوب بأهل الشمال ، وسبقت مصر غيرها من الأمم ، فظهرت موحدة أيام الملك نارمر (مينا) منشئ الأسرة الفرعونية الأولى قبل الميلاد باثنين وثلاثين قرناً أو تزيد من الزمان .

بمثل هذه المقومات جميعاً نشأت المدنية فى مصر ، وكانت نشأتها قديمة إلى أبعد مايكون القدم فى الحياة الزراعية المستقرة . . . بل بمثل هذه المقومات جميعاً سبقت مصر غيرها من الأوطان فى الحياة المتمدنة ، وفى مظاهر الحضارة بمعناها الأوسع الأعم . وعندما وحد نارمر وجهى هذا القطر الأمين ، وخرج على الناس بمصر التاريخية ، لم يكن ذلك

« بداءة » عهد جديد كما كان المؤرخون يقولون فى وقت من الأوقات ؛ وإنما كان فى الواقع « نهاية » عهد طويل من التطور البطىء فى مصر ؛ ذلك التطور الذى أخذت دراسة عصر ما قبل التاريخ تكشف عنه رويداً رويداً فى هذه العقود الأخيرة من السنين . . . وكلما زاد الكشف عن معالم هذا العصر برزت أمامنا عظمة هذه البيئة السخية ، وهذا الشعب الذى عاش فيها ووضع أسس المدنية والحضارة فى حياتنا التاريخية ، وكان فى جهاده وكفاحه مهتدياً ببيئته ، مستجيباً لمقتضياتها ودوافعها الظاهرة والخفية ، حتى غدا شعباً عظيماً متضامناً متكافلا منظم الجهود موحد الغايات ؛ فكانت الطبيعة فى خدمته ، وبارك الله فى جهوده ، حتى ازدهرت به الحياة وارتفعت على يديه المدنية ، وطلعت مصر العظيمة على العالم بأقدم الحضارات التاريخية ، وغدت منذ ذاك بحق كنانة الله فى أرضه .

سليمان حزين

فى الأدب الجاهلى

صـــور من صحراء نجـــد

تمد الطبيعة الرسامين بصور مختلفة يختارون منها ما يمكن أن يحمّلوه فنهم ، ويودعوه إحساسهم . ويختلف اختيارهم لتلك الصور باختلاف الفنان وبيئته ومدرسته . ولكن صوراً بعينها من صور الطبيعة تمتاز بأنها كانت على مرّ العصور مصدر إلهام الفنانين جميعا فى كل قطر وكل بيئة وكل عصر . ذلك أن هذه الصور امتازت بشئ من الحياة والقدرة على التعبير لم تجارها فيه غيرها ، فاختيرت وكثر اختيارها ، وترددت على مرّ العصور ترديدات مختلفة ولم يمل تردادها . فلقد فُضلت صورة الشمس غاربة على أية صورة أو أى وضع من أوضاعها حتى عليها شارقة ، فاتخذ الفنانون مغرب الشمس فى كل العصور موضوعاً للرسم يختلفون فى تفاصيله باختلاف ما يريدون منه من تعبير . ومنهم من يشرك الجبال فى هذا التعبير ، ومنهم من يشرك الحب ، ومنهم من يشرك الانسان فى إخراج الفكرة ، أو إحداث الشعور الذى يريدون أن يحسه الناظر إلى لوحاتهم . ولكنهم يتفقون جميعا فى أن الشمس واقترابها من الأفق وخفوت ضوئها ، اتخذ أساساً أو مادة أولية كالألوان للتعبير . وكان لهذا التحديد فى الاختيار تحديد يسير فى ما قد عُبر عنه ، ولكن كان لاختلاف التفاصيل اختلاف كبير جداً فى هذا الكل الذى أريدت به الصورة .

وفى عالم النحت نرى هذه الظاهرة أوضح منها فى عالم الرسم لضيق دائرة اختيار المنظر ، بل لضيق دائرة اختلاف تفاصيله أيضاً . خذ مثلا جسم الانسان عارياً : كم مرة استعمل فى النحت للتعبير عن مختلف الاحساسات والمعانى ، والأصل فى ذلك لا يختلف بل إن التفاصيل مشتركة إلى حد بعيد ، ولكن مجرد الوضع أو الحركة هو الذى يختلف ، ومع ذلك استطاع النحاتون أن يؤدوا بهذا الاختلاف اليسير مئات من المعانى والتعابير والاحساسات ،

بل إنهم ليأخذون أقوى أجزاء هذا الجسم فى القدرة على التعبير ، وهو الوجه ويكثرون من نحته ، بل قد يأخذون وجه إنسان بعينه كوجه العذراء ، فيؤدون بهذا الوجه المعين أكثر من معنى وأكثر من إحساس : فهذا وجه عذراء يمثل الضعف الانسانى والاستلام للقدر والخضوع لحكم الله الذى لا مرد لحكمه . وهذا وجه عذراء يمثل الجلد والصبر والتعالى والأمل فى انفراج الكرب ، وهكذا ؛ والوجه واحد والملامح واحدة ، ولكن اختلافا بسيطاً فى الأبعاد والخطوط يؤدى إلى هذه النتائج القيمة فى الفن . أما فى الأدب فان ميدان الاختلاف فى تصوير الصورة الواحدة أوسع وأشمل . ذلك أن الأدب فن لا يستطيع بطبعه أن يصور الجمود ، وإنما هو يصور الحياة والحركة ، يصور لنا أجزاء الصورة منفردة كل منها على حدة ، ولا يمكن أن يعطينا الصورة كاملة بكل تفاصيلها فى دفعة واحدة . لذلك كانت التفاصيل فى تصوير الصور حرة فى الأدب لا تتقيد تقيداً لازماً موجباً بالجمال والتناسق أو حتى بالواقع فى بعض الأحيان ، وإنما يكفى فيها أن تكون مناسبة منطقية تؤدى إلى غايتها فتصور الحياة والحركة . ومن هنا كان التشابه فى رسم الصور الأدبية يكاد يكون مستحيلا . فاذا كان كل رسام أو مثّال يستطيع أن يحمّل الصورة الواحدة المحدودة معنى يختلف عن غيره وإحساساً يمتاز مما سواه فان الشاعر لا يستطيع مهما دقق فى النقل أن يرسم صورة على نفس الوجه الذى يرسمها به غيره . فطبيعة الكلام وما تدل عليه كل كلمة بدقة وتحديد تمنع من أن يكون هناك تكرار فى الصور الأدبية . بل إننا إذا استطعنا أن نجد لكل كلمة مرادفاً فانه لا يمكننا أن نوجد بين هذه المترادفات ما بين الكلمات الأصلية من تناسب وتناسق . فاذا وجدنا صوراً فى الأدب تتكرر فى ظاهرها ثم أمعنا النظر فى تحليلها تحليلا دقيقاً ، وجدنا أن هذا التكرار غير موجود ، ولكننا نعمد إلى هذا التحليل فنخرج بنتائج خصبة إذا اتخذناه وسيلة لتمييز الصور الأدبية الحقة من الصور الزائفة ، أى لتمييز الصور الجيدة فى ميزان النقد الأدبى من الصور الرديئة التى لا تصلح لأن تكون أدباً ، ونخرج بنتائج خصبة حقا إذا نحن عمدنا إلى هذا التحليل ، لنرى الفرق بين تصويرين أدبيين ممتازين لمنظر بعينه .

فلعل تمييز الجيد من الردئ من هذه الصور سهل ميسور ؛ لأن النغمة

المنفرة والتنافر الشاذ فى الصورة المقلدة تقليداً قاصراً غير فنى سيصدماننا لأول وهلة إذا ما بدأنا ندقق أو متى نستمع إلى وصف الشاعر . ولكن لمح اختلاف التفاصيل وما يضيفه هذا الاختلاف البسيط من أثر فى الصورة العامة ، ومن عون على الخروج بالصورة الجديدة للمنظر نفسه إلى مصاف الصور الأدبية الخالدة أصعب ، ولعله أمس بالدراسة الفنية ، وأجدى فيما نصل إليه من نتائج .

وهذه صورة من صحراء نجد كثر تردادها فى الشعر العربى الجاهلى ، وكان لكل ترداد نغم خاص ، ولكل إخراج وقع جديد على النفس . هذه صورة الحمار الوحشى كما رسمه لبيد فى معلقته ، وكما رسمه أبو ذؤيب فى قصيدته المعروفة « أمن المنون وريبه تتوجع » . فلقد أراد كل من الشاعرين أن يصور حياة هذا الحيوان فى صحرائه ، ليؤدى بتلك الصورة غرضاً خاصا فى قصيدته . أما لبيد فقد أراد أن يصف سرعة ناقته التى سيقطع بركوبها لبانة من تعرض وصلة ، فان جفت نوار فهو خليق بأن يقطع أسباب المودة ، وفى ركوب الناقة وفى مغامرات السرعة فى الصحراء تسرية وسلوى . وأما أبو ذؤيب فهو يريد أن يدلل على أن لا شئ يبقى على حادثات الدهر . لقد مات بنوه وخلفوه يائساً حزيناً يعانى حسرات الفراق وارتقاب الموت ، ولكن كل حىّ يموت . وباختلاف هذا الغرض اختلفت تفاصيل الصورة ، لا لأن الشاعر أخذ نفسه برسم التفاصيل على نحو معين فحسب ، ولكن لأن الشاعر نفسه كان يرى هذه التفاصيل على هذا النحو نتيجة تأثره بالصورة . أما لبيد فكان يرى الحمار محبًّا غيوراً ، لأنه كان يحس الحب والغيرة . فلماذا انفرد الحمار بزوجه على ربوة ؟ فان لبيداً يرى أنه أفردها غيرة عليها ، وحرصاً على أن يستأثر بها وحده . وإذا حياة الحب التى يحياها لبيد مع نوار يعكس ظلالها على حيوان الصحراء فتملؤها حياة وقلقاً وغيرة وحبا وتنافساً وفوزاً . وأما أبو ذؤيب نقد كانت حالته النفسية تختلف كل الاختلاف : كان حزيناً يرى ما حوله فى ظلال سوداء من الحزن والأسى والارتياع من هذا المصير المحتوم ، هذا الموت الذى قدّر على الانسان ألا يستطيع له مردّا . والموت لا يحس إلا إذا أحسسنا الحياة من قبله ، وهذا حمار أبى ذؤيب يمثل الحياة بكل ما فيها من نشاط

وحيوية . هو حمار صاخب الشوارب ، يصيح كالمسبوع من فرط ما يحس من فتوة . وهو يظهر لنا ومعه من الزوجات أربع ، يأكل ما شاء من المرعى المنبسط أمامه ، مرعى خصب وافر الخصوبة ، فاذا شبع فهو يلعب مع زوجاته عاضا هازلا وجادا . وهنا يكتفى أبو ذؤيب بتصوير النشاط والحيوية ، ويريد إكمال صورته عن الحياة كما هى . وكذلك لبيد يريد أن يساير حماره فى حياته العادية . فالشتاء يفرد الحمارين وما معهما فوق الربوة ويفرض عليها قوتاً رطباً يغنيها عن الماء . ولكن الصيف يأتى ، فاذا الحمر تعانى العطش وشدته . والحر يشتد ، ولابد من تغيير المكان التماساً للماء . وتغيير المكان فى حياة الحيوان عند الشعراء القدامى نذير الأخطار والأهوال . وهاهو ذا حمار لبيد يرى أن لا بُدّ من أن يندفع نحو الماء . وفى هذا الاندفاع كما فى مطاردته الأولى لزوجه عندما ارتاب فى أسرها فرصة لتصوير السرعة . بل لعل هذه الفرصة خير من سابقتها ؛ فهو عطش قد اشتد به العطش ، ولكنه يريد أن يحافظ على زوجه وأن يستأثر بها . وهنا يفيد لبيد من الفرصة فيصف سرعتهما وفى هذا الاندفاع نحو الماء والغبار الذى يثيرانه من شدة العدو . ويزيد فى السرعة أن الأتان تريد أن تفلت منه وهو يلاحقها لا يعبأ بشوك الأرض ، وأخيراً يصلان إلى الماء .

أما الطريق إلى الماء عند أبى ذؤيب فهو ثانوى فى صورته . ولكن الحياة بين هذه الأتن وحمارها هامة ؛ فهى تحتمى به من الخطر ، وتسير معه مجتمعة ومتفرقة كقداح الميسر ، والحمار حاميها يديرها كيف شاء ، وإذا الحمار يصل إلى الماء ونجم العيوق يرقبه هو وأتنه . فانظر إلى هذه الاشارة التافهة إلى نجم العيوق من فوقها ؛ فهو عين القدر التى ترقب الحياة والأحياء لتنفذ فيها أحكامه فى دقة وصبر وتؤدة . بل إن الشاعر ليشبه النجم بمراقب اللعب فى الميسر ، وكأنما الأحياء فى الدنيا قداح يديرها فى اللعب أقواها ، ولكن القدر هو الذى يرعى تنفيذ الأحكام العليا فيها .

وهنا تعود الصورتان إلى التشابه القريب ، فالماء عذب ، والحمر تشرئب أعناقها لتشرب حتى ترتوى . أما لبيد فقد استوفى غرضه من الصورة ، ووصف السرعة مرتين ، كانت الثانية فيهما أقوى وأدق ، وهو يريد الآن أن

يختم الوصف ، والماء يمده بمنظر جميل يحسن أن يقف عنده . وهو الذى يحب جمال الطبيعة ؛ فهذه عيدان القصب قد أحنت الريح بعضها على الأرض أو أمالتها ، وبعضها الآخر قائم يمد ظله على الماء من تحته . وأما أبو ذؤيب فقد انتهى من المقدمة ليس غير ، وهو يريدها الآن أن تؤدى غرضها الأصلى . إن يسر الحياة لا يدوم ، والموت آت لا ريب فيه . فاذا ارتوت الحمر فقد زال الضر ، ولكن الضر الأكبر ينتظرها ، وإذا بريب قرع يقرع ، وإذا القانص يظهر ، وإذا أسهمه يرمى بها ، وإذا الحمر خائفة قد اضطربت واحتمت فلم ينجها اضطرابها ولا احتماؤها ، ولم يغن حاميها عنها شيئا أمام الموت كما كان يفعل فى الجوع والعطش . وإذا القانص يعبث بالكنانة يخرج سهامه الواحد تلو الآخر يوزع الحتوف بالعدل والقسطاس ، فيتعثر من الحمر ما يتعثر ، ويفر منها ما يفر . ولكن الحمار محور الصورة وأس الحياة فيها يموت . وهل يبقى على حدثات الدهر شئ ؟

ولئن كانت صورة الحمار عند هذين الشاعرين ترينا شيئاً من هذا التشابه والاختلاف فى الصور ، وما يستتبعه من اختلاف جوهرى فى الصورة العامة ، فاذا هى تنطق بأثر فنى غير الذى تنطق به الأخرى ، فان الصورة التالية فى نفس القصيدة عند كل من الشاعرين تمدنا بطائفة أخرى طريفة من التشابه والاختلاف ، لعلها أبرز فى تبيان ما لهذه الصورة الشعرية الخالدة من جمال ، وما لهذا الاخراج الفنى الذى يخرجها عليه الشاعر من أثر فى إحداث الأثر الفنى المطلوب .

هذا لبيد يختار لوصف سرعة ناقته مرة أخرى بقرة وحشية على حين يختار أبو ذؤيب لتقرير واقع الموت ثوراً وحشيا . ولمجرد هذا الاختلاف سبب ، فالأول يصف حياته العاطفية ، والأنثى أليق بأن تحمّل هذه العواطف وتكشف عنها . إن ناقته المسرعة تشاركه فى الألم لفراق من أحب ، فهى تسرع ولها من وجيب قلبها مما تعانيه من ألم نفسانى حافز إلى الزيادة من سرعتها . على حين يريد أبو ذؤيب الثور الثابت الصبور القوى المدرب ذا القرنين الحادين ليقول إن هذه الضخامة وهذه المرانة لم تجديا عليه شيئاً ولم تغنيا عنه فتيلا يوم أراد الموت أن ينزل به ، وهكذا تستمر الصورة من وحى حال الشاعر النفسية لتؤدى غرضها الفنى المتميز . فالبقرة عند لبيد قد فقدت

ولدها فهي تبحث عنه لاهثة متعبة قد جف ضرعها من اليأس ، وانقضت الليالي وانصرمت الأيام ، وهي لا تعرف لولدها مقراً ، والصحراء وحدها تعرف أين هي أشلاؤه . ولكن المطر ينزل عليها أثناء بحثها ، ثم ينهمر فيلجئها إلى شجرة ضخمة تحتمي فيها ، وقد ازدادت قفزات قلبها من الخوف . والمطر يلمع ظهرها ، فاذا هو كجمانة البحرى وسط هذا الليل الدامس الحالك . ويتنفس الفجر ويتمطى شعاعه استعداداً للصباح ، فاذا البقرة تزل أزلالها عن الثرى ، ثم تسترجع الحنين وتوقن باليأس ، ولكنه رز الأنيس يروعها . وحتى ظهر الانسان فى حياة الحيوان الوحشى فهو عنوان الشر وبشارة الموت . وإذا البقرة تعدو وأى عدو ! عدو من توترت أعصابها من خوف وحزن وألم ، فهى مرهفة قافزة تعرف أنها مقدمة على معركة الحياة أو الموت إن لم تستطع أن تنجو بنفسها . وهنا قمة الصورة عند لبيد هذا هو أصلها وأساسها ، وما حوله من منظر كان أداة لابرازه . ولكن الكلاب تلحقها . إذن نقد انتهى العدو وبدأت المعركة . أكانت المعركة هامة بالنسبة إليه ؟ كلا ! إنها تافهة ثانوية ، فلقد استكمل صورته وهو لايريد الآن أكثر من أن ينهيها . والكلاب تتصدى للبقرة وهى منهوكة متعبة . أتغلبها الكلاب أم تتغلب هى عليها ؟ حتى هذه النتيجة لا تهم أيضاً . ويقتضب لبيد هذا الجزء الأخير اقتضاباً قد يراه السامع لأول وهلة غير ملائم لما سبق من تفصيل فى وصف الحال النفسية ، وما تقود إليه من سرعة . ولكن هذا التفصيل كان هو الأساس ، وأما المعركة ونتيجتها فلا يمكن أن تستغل فى الغرض الأصلى .

أما أبو ذؤيب فالمعركة عنده كل شئ ، هى الدليل الشعرى على أن محاربة القدر لا تغنى ، وعلى أن الجهاد لا يذود عن الانسان حكم الموت ولا يغيّره . لذلك تجد الثور عند أبى ذؤيب فخم البنيان ، دائم الحذر والخوف من فرط احتياطه وخبرته ، متربصا لكلاب الصيد يرقب مقدمها . ولكن الرياح تهب والمطر ينزل عليه ، فيأوى هو أيضاً إلى شجرة ضخمة يحتمى بها ، وبين أضلاعه قلب هلع ، لا من يأس على فقيد ولكن من ارتقاب لما سيجئ . وهو يرمى بعينيه الغيوب ، وطرفه مغض يرى بل يصدق ما تسمعه الأذن من شدة الخوف . ومع خيوط الفجر الأولى ينفض المطر من على ظهره ليسمع صوت الكلاب وصاحبها . والكلاب عنصر هام فى الصورة ، لذلك يصفها

أبو ذؤيب ، فمنها كاب أجدع . وهو يصف مقدمها ، ويصف كيف يجمعها صاحبها حتى لا تهجم على الثور فرادى فتنهزم ، وإذا الكلاب تسد عليه الطريق . ويعدو ، ولكن العدو لا يهم أبى ذؤيب فهى تصل إليه ، بل إنها أخذت تنهش لحمه ، وبدأت معركة الحياة أو الموت . و إذا قرنه وهو سلاحه القوى يظهر فى الميدان ، وقرنه حاد ومرانته فى استعماله طويلة ، فهو يحتال على الكلاب حتى يصيبها ، ويقطر دمها من قرنيه فيشبهان حديد الشواء يقطر منه دم اللحم . وارتدت عنه الكلاب صرعى ، أو خائفة هاربة . فهل نجا بذلك من الموت ؟ إن كل شئ يقول نعم ، ولكن القدر يقول لا . وإذا صاحب الكلاب يظهر على المسرح وبيده السهام . والسهام لا ينفع فيها قرن الثور ولا مرانته وهو متعب مسكين . والسهم ينفذ والثور يهوى كالجبل الضخم تهتز الأرض لكبوته . وهل يبقى على حدثات الدهر شئ ؟

وهكذا تنتهى صورة أبى ذؤيب الثانية يريد بها أن يسير برهانه على فناء الدنيا خطوة أخرى . ففى الصورة الأولى موت يجئ ، وفى الثانية موت يجئ أثر جهاد موفق فى ظاهره خائب بحكم الأقدار . ثم ينتقل إلى الصورة الثالثة التى تسير بهذا البرهان خطوة ثالثة ، ولكنها لا تمت إلى الطبيعة ولا إلى الصحراء بشئ .

أما القراءة الأولى للقصيدتين فانها تقول لنا إن صورة الحمار وصورة الثور كلتيهما عند الشاعرين سواء ، وهى صور ألف الشعراء أن ينتزعوها من صحرائهم ليجملوا بها شعرهم ، ويقربوا بها معانيهم . ولكن الامعان فى هذه الصور ومحاولة لمح الاختلاف والتشابه ترينا أن الصحراء والحيوان ، والمطر والماء ، والكلاب والشجر ، كل هذه أدوات كالألوان فى يد الرسام ، كل فنان يقول بها شيئا ويضرب بها نغما قد يتفق فى ظاهره ولكنه فى الحقيقة مختلف كل الاختلاف ، يحدث فى النفس آثاراً فنية قد لا تتصل من قريب ولا حتى من بعيد إلا بخيوط رفيعة دقيقة بصلة الشبه أو القرابة ، كما تتصل كل لوحة تمثل وجه الانسان أو جسمه أو كل تمثال يمثلهما بصلة التشابه والقربى .

سهير القلماوى

رمز

نهار وليل

بودّى لو أنهض والنهار باسم

فألمح إلى عجائب فأستملى

لكنى أخو العجز

لا أزال ظلاً للنعاس المتثائب

فلو اندفع النور لفتك بالأشواق

ذات مساء إلى وليجة نفسى تحدّرت

— بدوةٌ من بدوات —

هل أردت تصفّح البستان لا ثمر فيه ولا زهر ؟

تحدّرت وما استطعت الصعود

لوجهى صرعنى هولٌ ما دريتُ ما يكون

الحب وحدَه كان يقوى أن يسعفنى فأصعد

لكنه جاء من بَعد ، من عل ، من مغيَّب البُعد

أقبل عاجلاً مترعاً بالضوء فيضٌ غير مستحىٍ !

شدَّ ما فتننى فذوَّبته فى خاطرى

وفى الخاطر ظللنا روحاً لصق روح
كلانا جاثم مخنق

هل كان فى وسعىَ أن أدرك
قبل أن أغفو وأذهب فى الغفوة
— ياله من سبات لطيف فى ضميره خِصب ونشاط —
هل كان فى وسعىَ أن أحلُم باليقظة الناعمة
بالأعجوبة يعانقها النور ؟

فى البدء داخل الليل نهارى وأسرف
فغلظت العتمة
ولكنى أصررت على التبصّر
أصرّ
والآن الآن أذكر كيف لفّت العتمة خاطرى
يالله ! يا ظلمةً تُجرى الخوارق فى وليجة نفس
يا ظلمةً أصبحت منبت مصيرٍ محيِّر مصيرى الوهّاج .

بشر فارس

ابن الخطيب

سياسى وشاعر وفيلسوف

كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وكان عبقرية متعددة النواحى ؛ فهو طبيب وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول ، وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيراً وزير وسياسى ثاقب النظر قوى الادراك .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشة من أعمال غرناطة فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى رجب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ثم انتقل بيتهم إلى غرناطة ، وخدم أبوه عبد الله فى القصر والخاص فى عهد السلطان يوسف أبى الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة ، ودرس الطب والفلسفة والفقة والأدب ، وبرز فى النثر والنظم منذ حداثته . ولما توفى أبوه فى سنة ٧٤١ هـ حل مكانه فى خدمة القصر وهو فتى فى عنفوانه . وتولى أمانة السر للوزير أبى الحسن بن الجياب وزير السلطان يوسف ، وكان من أعظم الكتاب والشعراء فى عصره . ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ خلفه ابن الخطيب فى الوزارة والكتابة إلى جانب كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبى النعيم رضوان . ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥ هـ) وخلفه فى الملك ولده محمد الغنى بالله ، استمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب معاونا له ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولاية سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى سلطان المغرب على رأس وفد من رجالات الأندلس يستنصره ويستغيث به على مقاومة ملك قشتالة . وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان قصيدة مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر	عُلاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنه كف قدرته	ما ليس يستطيع دفعه البشر

فتأثر السلطان لقصيدته أيما تأثر ، ووعدهم باجابة ملتمسهم وتحقيق مطالبهم .

وفى سنة ٧٦٠ ﻫ (١٣٥٩ م) نشبت ثورة فى غرناطة قتل فيها الحاجب رضوان وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وتولى مكانه أخوه اسماعيل ففر إلى وادى آش ، واعتقل ابن الخطيب بعد ذلك بقليل . ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه فى كتاب « الاحاطة » هذه المراحل الأولى من حياته العامة فى قوله : « نقلدنى السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب واستعملنى فى السفارة إلى الملوك واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صون حضرته وبيت ماله وسجوف حرمه ومعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى وقصر الشورة على نصحى ، إلى أن كانت الكائنة فاقتدى فىّ أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علىّ ، فكان ذلك . »

وتدخّل السلطان أبو سالم المرينى ملك المغرب فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ، وكانت تربطه معه مودة وصداقة مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب اجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ؛ وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب (المحرم ٧٦١ ﻫ) واستقبلهما السلطان أبو سالم فى فاس بترحاب ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب فى الحفل قصيدته المشهورة التى يدعوه فيها لنصرة سلطانه ، وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر	وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى داراً على اللوى	عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى	بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحىَ وكره	فهأنذا مالى جناح ولا وكر

وكان لانشاء ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع ، ويقول لنا ابن خلدون وقد كان من شهود ذلك الحفل ؛ إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى .

وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهات عدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره وفى توجيه شؤونه . وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى يستأثر بها ابن الخطيب بالأندلس ؛ وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويجل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والاجلال . فيقول لنا ابن خلدون مثلا فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه وانتشرت فى الآفاق قدماء » . ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية وبراعته فى الادارة والحكم (١) .

ويصف لنا الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب خلاله ومواهبه فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية والامتاع بالفهوم النقلية . » ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل (٢) .

وأنفق ابن الخطيب ومليكه فى المنفى زهاء عامين ونصف عام حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المغتصب ، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب أن يسترد ملكه ، وذلك فى جمادى الآخر سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة ، ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها وراجع كتابى ابن خلدون ص ٣٦ – ٣٩

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ .

فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى الذى قربه السلطان وأولاه عطفه لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم (رمضان سنة ٧٦٤ هـ) وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان .

ويصف لنا ابن الخطيب جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطة بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية والأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ذمانا من السلطان بترياق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ... [1] »

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته : « وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعاية فيه [2] . »

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى فى الوزارة وهو يستأثر بكل سلطة ، ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراما من البغضاء والحسد ، وكان السلطان يعرض فى البداية عن الاصغاء لأعدائه والوشاة به . ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس واستأذن السلطان فى تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها فى نفر من خاصته ، ومعه ولده على ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٣ هـ) وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المرينى ملك المغرب ، وكان السلطان

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤١ . — (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥ .

يقيم يومئذ فى تلمسان نقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ، وتبوأ ابن الخطيب فى بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيبته ، فاتهموه بالزندقة والخروج عن شريعة الاسلام والطعن فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، ونسبوا إليه فى ذلك أقوالا ومقالات أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه فى الوزارة أبو عبد الله بن زمرك أكبر مروج لهذه الدعاية . وتولى صوغ الاتهام عدو ابن الخطيب القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى ، ووجه إليه بالمغرب رسالة شديدة ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن فى حق النبى ويقول : « فانه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة يكبر فى النفوس التكلم بها أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم .. ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم . » ثم يعدد مثالبه فى الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر منكم من العبث فى الابشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال للشريف والمشروف والخادم والمخدوم [(١)] » وسجل القاضى أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله إلى السلطان عبد العزيز يطالب بتنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد ، وهو الاعدام . فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس وقال لهم : هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؛ وردهم خائبين ، وزاد فى اكرام ابن الخطيب ورعايته [(٢)] .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) وخلفه ولده

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥ و ٣٣٦ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

السعيد طفلا على العرش غادر بلاط المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته فى الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت فى شمال المغرب على يد بعض الزعماء من بنى مرين ، وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبى سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير . وخُلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ .

وكان ابن الخطيب قد لجأ فى أثناء ذلك إلى البلد الجديد « ضاحية فاس » وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر وزعماء الفتنة بشأن ابن الخطيب ومصيره . فلما وقع الانقلاب بادر السلطان بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب جهداً فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه ، وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله ابن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى واستدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه وأخصها تهمة الزندقة استناداً على ما ورد فى بعض رسائله ، وعزّر وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء السفلة بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ثم دفنت . وكان ذلك فى أواخر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ضحية الجهالة والتعصب والاحقاد السياسية الوضيعة . وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر كان يرددها وهو فى سجنه ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت — وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة — كجهر صلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما — وكنا نقوت فها نحن قوت

وكان ابن الخطيب سياسيا بعيد النظر ، وكان يرى فى حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته وإلى المجاهدة فى سبيل الدين والوطن ، وله فى ذلك رسائل عديدة ونداءات مؤثرة يوجهها إلى قومه ، ويلفت نظرهم إلى الخطر الداهم الذى لا محيص من وقوعه ، وهى رسائل تمتاز بروعة أسلوبها [١] .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ما وجهه فى وصيته إلى أولاده من النصح بعدم الاسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذى لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع فى العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه أن يتغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال . وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالاجمال فى الطلب أولى [٢] . »

ومن الصعب علينا أن نلم بجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب حسبما أسلفنا ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسيا ومؤرخا ، وقد ترك لنا تراثا ضخما متنوعا من مؤلفات عديدة وديوان شعر حافل ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الاحاطة فى أخبار غرناطة ، مركز الاحاطة بأدباء غرناطة ، الحلل (بالأسكوريال) .

---

(١) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه المسائل .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٤٢٥ .

اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية ، رقم الحلل فى نظم الدول . الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ، التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى ، (وهو أيضاً تاريخ لغرناطة) .

منفعة السائل فى المرض الهائل . (وهو يتعلل بالوباء الكبير سنة ٧٤٩ ﻫ) (بالأسكوريال) .

ريحانة الكتاب (بالأسكوريال) الديوان (بالأسكوريال) السحر والشعر . الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة [١].

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية . ومن أشهر نظمه الموشحة الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية ، وقد نقل إلينا المقرى منها العدد الجم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يكتبه إليه منها [٢].

ويفرد المقرى فى كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب ، وأخباره وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ، وقد نقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهى من أبدع ما كتب [٣] .

محمد عبد الله عنان

---

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ .
(٢) راجع كتاب نفح الطيب ج ٤ ص ٣١٩ — ٤٢٦ .
(٣) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .

هذا الانسان ...

يصطلح المؤرخون الأوربيون على تسمية العصور التى تقع بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ للميلاد بالعصور المظلمة ، ذلك لأن العقل البشرى خبا وأوشك أن ينطفئ . فكانت أوربا فى ظلام الجهل لا ترى رؤيا العقل والأدب والعلم . وبقيت فى هذا الظلام إلى بدايات القرن الحادى عشر حين بزغ النور على أضعف ما يكون ، ولكنه ما زال يتجمع حتى انفجر فى القرن الخامس عشر .

فاذا انتقلنا من التاريخ البشرى إلى التاريخ البيولوجى وجدنا أيضا « عصوراً مظلمة » . فقبل نحو ٧٠ أو ٨٠ مليون سنة عم العالم ظلام ، كأن الحياة ، فى الاعتبار البشرى ، قد أخفقت وسدت على نفسها طريق الرقى . ذلك أن الأحياء انتهت إلى أنواع من الحيوان يطلق عليها فى أيامنا اسم الزواحف الكبرى . وكانت هذه الزواحف التى لا تزال هياكلها باقية فى المتاحف ، بل كذلك بيضها ، تشبه إلى حد كبير التماسيح والعظايا والورن والسلاحف . ولكنها كانت فى الحجم تترجح بين الكلب والفيل ، بل كانت تزيد أحيانا على الفيل . وكانت تعيش فى كل مكان فى الغابات والأنهار والسهول والجبال والبحار . وقد انقرضت لأسباب لا تزال مجهولة . ولم يبق منها ، بعد تطورات مختلفة جعلتها بعيدة عن الزواحف القديمة ، سوى تلك الزواحف الصغيرة والكبيرة فى أيامنا . وهى لا تحيا إلا تلك الحياة السرية ، تختبىء من الأحياء الأخرى وتخشى الافتراس ، وتسعى فى الظلام وتنجحر فى النهار .

وعاشت هذه الزواحف الكبرى نحو ثلاثين أو أربعين مليون سنة . وكأن التطور قد تجمد بها . وكأن اتجاه الطبيعة نحو الانسان بايجاد العقل قد انحرف ، فلم تعد الغاية نمو العقل ، بل أصبحت نمو الجسم .

ومن قبل ذلك بملايين السنين تجمد التطور بأمجاد الحشرات التى اتجهت وجهة أبعد ما تكون عنا ؛ اذ قنعت بالغريزة كأنها من الشجر . حتى أن برجسون ، فى نزعة غيبية مسرفة قال إن فى الحياة طريقين أحدهما طريق الغريزة ، وقد قطعته الحشرة إلى نهايته ، والآخر طريق العقل ونحن البشر فى طريقه لما نبلغ نهايته . ولو أن برجسون كان قد عاش أيام الزواحف الكبرى لوصل إلى مثل هذا الفرض أيضا . ولكن الحياة « موسوعية » تحاول وتجرب وتبيد الأحياء الفاشلة ، وتتحسس الوسائل الصغيرة لتجاربها الكبيرة .

وانقراض الزواحف الكبرى مجال للحدس والتأمل . فلعلها انقرضت لأنها كانت كبيرة الحجم عملاقية التركيب . ونحن نعرف أن العمالقة الشاذين الذين يولدون بيننا من البشر يعقمون أى لا يتناسلون . والفيل أكبر الأحياء على اليابسة لا يلد إلا مرة كل ٢٠ سنة . ولكن هذا التعليل لا يكفى ؛ لأنه كان بينها زواحف فى قدر الكلب أو الحمار أو الفرس . وهناك من يقول بأن التغير المناخى قد أبادها ، أى إن الدنيا بردت فجأة ودخلت فى عصر جليدى ، فلم تتحمل هذه الزواحف المناخ الجديد . ولكن هذا بعيد ؛ لأن التطور كان أحرى بأن يسعفها بفراء أو ريش بدلا من أن يتركها لتنقرض . وأخيرا هناك من يقول بأن اللبونات الجديدة كانت تأكل بيضها وتحول دون تناسلها . وهذا حدس لا أكثر .

ولكن بعد نحو ٣٠ أو ٤٠ مليون سنة من هذا الكابوس الذى جثم على العالم نجد أمارات العصر الجديد أو النهضة البيولوجية . فمن ناحية نجد الطيور ومن ناحية نجد اللبونات . وليس فى أيامنا طيور قديمة تحتوى مناقيرها على الأسنان ، ولكن بقاياها أو أحافيرها توجد فى المتاحف . أما اللبونات القديمة فلا يزال بعضها حيا حتى فى أيامنا . فانها تبيض ولا تلد . ثم هى مع ذلك ترضع أولادها بطريقة بدائية ؛ إذ يتشقق البطن ويخرج من شقوقه سائل دموى لبنى تلحسه الأطفال . وهذا هو الرضاع البدائى كما نراه فى حيوانين هما البلاتيبوس فى استراليا والنمّال أو آكل النمل فى أمريكا الجنوبية !

وظهور الطيور هو خطوة كبيرة جدا فى التطور ؛ لأن الاحساس عند الطائر انتقل من الأنف إلى العين . فالى ظهور الطيور كانت جميع الأحياء ، فى البحر واليابسة ، تسعى للطعام والأنثى بالأنف . ولكن ميدان الشم صغير

محدود . أما ميدان العين فيتسع إلى الآفاق ويزيد الملاحظة والمقارنة فيزيد الذكاء .

وحوالى ٣٠ مليون سنة قبل عصرنا نجد أحياء من اللبونات الجديدة تعيش على الشجر وتعتمد على عيونها . وهى مضطرة إلى ذلك غير مختارة ؛ لأن المجال للشم على الشجرة صغير جدا . ولكن هذه اللبونات لم تكن مساحة بالريش لكى تطير بالأجنحة وتنجو بنفسها أو تنتقل بها من شجرة إلى أخرى . ولذلك احتاجت هذه اللبونات الجديدة إلى أن تعتمد فى التنقل على الأغصان أو الانتقال من شجرة إلى أخرى على أيديها .

وأبعد إيماءة إلى أصلنا هو الليمور . وهو أنواع كثيرة تختلف أحجامها من حجم الفأر إلى حجم الثعلب . وهو حيوان ليلى يسعى فى الظلام ثم يختبئ وينام فى النهار . ولأنه ليلى جمع عينيه فى وجهه مثل البومة التى تصيد فى الليل . ووجهه غير بشرى ؛ فان أنفه يجتمع بفمه فى نقم بارز ، وشفته العليا مشقوقة ، ومنطقة أنفه وفمه رطبة كالبقر . وهو يستعمل يديه الاثنتين ، لا الواحدة للتناول . وقد يتناول طعامه أحياناً بفمه . وهو من أقدم اللبونات كما يدل على ذلك أنه يعيش فى شرق آسيا وشرق إفريقيا (فى مدغشقر) ولا يعيش فيما بينهما . أى إنه نشأ قبل الانفصال الجيولوجى بين هاتين القارتين ، هذا الانفصال الذى يملأ ثغرته الآن المحيط الهندى .

وهذا الليمور هو إيماءة أولى للانسان . ولكن ما أحقرها من إيماءة ! فانه لايزال يحتفظ بذنبه ، وذكاؤه يقل عن ذكاء الكلب ، ومخه أمسح بلا تلافيف .

وليس من شك فى أننا نحن البشر قد قضينا فترة طويلة من تطورنا على الشجر اكتسبنا بها جملة أشياء ما كنا لنكسبها لو أننا قنعنا بالبقاء على اليابسة . ذلك أن الشجر علمنا وعوّدنا التسلق باليدين . فلم تعد يدانا للمشى فقط بل صارتا أيضاً للتسلق . وبهذا التسلق نفسه تهيأت اليدان للامساك والتناول . ثم كسبنا ، بالمعيشة على الشجر ، الاعتماد على العين بدلا من الاعتماد على الأنف . فزاد وجداننا أى درايتنا بالوسط الذى نعيش فيه . لأن الحيوان الذى يسعى بأنفه ويسترشد بالشم ، لا يدرى إلا البقعة التى هو فوقها أو القليل مما حولها .

ولكن الحيوان الذى يقعد على غصن الشجرة أو يرتفع إلى غصونها العالية يرى بعينيه جملة كيلومترات محيطة بالشجرة . ونحن هنا كالطير ، ولكننا نمتاز على الطير من حيث إن أيدى الطير صارت أجنحة ، أما أيدينا فبقيت للتسلق ثم للتناول .

وإذا كان الليمور إيماءة أولى ، فان الطرسير إيماءة ثانية . فانه حيوان يتفق مع الليمور من حيث إنه ليلى كالبوم . والبومة ، لأنها تصيد فى الظلام أو الغبشة ، تحتاج إلى أن تكون عيناها فى وجهها ، لا فى صدغيها كالحمامة أو الدجاجة ؛ لأنها تحتاج إلى التميز الصحيح للاشباح بعينين اثنتين تريان معاً . وليس الشأن كذلك فى سائر الطيور النهارية التى ترى بعين واحدة . ولا بد أننا قضينا فترة طويلة من تطورنا ونحن نسعى فى الليل على الشجر ، كما هو الشأن فى الليمور والطرسير . وهذه الفترة هى التى جمعت عينينا فى وجهنا ونقلتهما من صدغينا . فصرنا ننظر إلى الأشياء بعينين نظراً كاليدسكوبيا ، أى إن الصورة التى تنقلها إحدى العينين تراجعها العين الأخرى وتصححها وتنقل ظلالها ، فتتجسم الرؤية . وهذا المنظر الكاليدسكوبى هو ما يطمع فى تحقيقه هذه الأيام المشتغلون بالأفلام السينمائية . أى إنهم يرغبون فى تجسيم الصور حتى لا تكون فتوغرافية فقط . وجميع الحيوانات ، باستثناء القليل ، كالانسان والقردة العليا ، وطيور الليل ، تنظر النظر الفتوغرافى بعين واحدة فى أحد الصدغين . فالرؤية عندها غير مجسمة ، أى غير متقنة .

ولكن حياتنا على الشجرة أكسبتنا ميزة أخرى لا تقل عن ميزة الاعتماد على العين ، أى على العينين معاً ، دون الاعتماد على الأنف ، هى ميزة استخدام اليد للتناول . فان التسلق على الشجر يهيئ اليد والأصابع للتناول ؛ لأننا تعلمنا من القبض على الغصن كيف نقبض بعد ذلك على العصا أو الحجر ، وكيف نتناول الثمرة باليد وننقلها إلى الفم بدلا من أن نمد شفتينا إلى الثمرة . وساعدنا هذا على وضع جديد للوجه البشرى ؛ لأن الفكين تراجعا للوراء ورقت الشفتان . فصار لنا وجه مستقيم عموديا ولا يبرز منه الفكان من أسفل . وساعدنا هذا بعد ذلك ، على أن نتخذ الوضع العمودى لأجسامنا بدلا من الوضع الأفقى الشائع بين الحيوانات .

اعتبر مرة أخرى الميزات العديدة التى نلناها من حياة الشجر :

١ — إن عقلنا أصبح عقل العين بدلا من عقل الأنف ، عقل الآفاق البعيدة والمقارنات الكثيرة . وما زلنا نقول : مارأيك ؟ يجب أن تتبصر . وهذا هو التفكير العينى .

٢ — اكتسبنا من الشجر استعمال اليد لتناول الطعام وغيره بدلا من استعمال الفم .

٣ — واكتسبنا أيضاً القامة العمودية ، وكان تسلقنا على الشجر هو التدريب الأول لذلك .

٤ — واكتسبنا هذا الوجه البشرى الذى لا يبرز فيه الفكان .

ولكن حياة الشجر علمتنا أيضاً أخلاقاً جديدة ، ما كنا لنصل إليها لو أننا بقينا على اليابسة ، منها عناية الأم بأطفالها أو هذه الأمومة البشرية فى التزامها لأطفالها مدة طويلة ، وكذلك اعتماد الأطفال على الأم . وهذه المدة الطويلة قد هيأت الفرصة للتربية .

ذلك أن سكنى الشجر لغير الطيور خطرة على حيوان لبون لا يطير إذا هاجت الريح وضربت الغصون ، أو إذا تسلق ثعبان وحاول أن يأكل الصغار . وهى أخطر على الأطفال الذين يجب أن تحرسهم الأم وتدأب فى المحافظة عليهم من السقوط أو من عادية الوحش . وهنا الفرصة العظيمة للنمو العقلى مدة الطفولة .

ونستطيع أن نصف الانسان منذ بداياته الأولى بأنه حيوان عينى ، لاحيوان أنفى ، وأنه أيضاً حيوان عمودى لا حيوان أفقى ، وانه أيضاً حيوان يدوى .

ولكن هذه البدايات نجدها جميعا فى الليمور الذى تنأى أصوله إلى ماض سحيق ؛ برهاننا عليه إنه كان يعيش قبل الانفصال الجيولوجى بين أفريقيا وأندونيسيا حيث لا يزال هو إلى الآن يقيم فى هاتين المنطقتين : مدغشقر وأندونيسيا .

ولكن هذه بدايات فقط فى الليمور لأنها غير تامة ؛ فان عينيه لم يتقاربا التقارب البشرى . وهو لا يزال يمشى على أربع مع القدرة على الوقوف

والتسلق . فاذا انتقلنا من الليمور إلى الطرسير ، وهو حيوان ليلى كالبومة ، وجدنا تقارب العينين ، ووجدنا ميزة أخرى هى أنه لا يمشى ولكنه يثب على قدميه كما نثب نحن حين نكون مقيدين . وهذا الوثب قد انتفعنا به لأنه نقل عبء الجسم من أصابع القدمين إلى رسغيهما ، فكانت القامة العمودية .

وظهر الطرسير ، فى تجاربه البشرية الأولى ، من أقل من ثلاثين مليون سنة ، وكنا نحن هذا الطرسير ننظر فى الظلام كالبوم ونثب على رسغينا ، ونأكل كل شئ بلا تخصص كما نفعل الآن . فلم نقتصر على الثمر ولم نقتصر على الحشرات . فنحن من حيث الطعام « موسوعيون » لا نتخصص .

والطرسير مع ذلك حيوان سحيق ؛ لأن الفرق بينه وبين الغوريلا أكبر جدا من الفرق بين الغوريلا وبين الانسان ؛ فان مخه لم يغضّن الى الآن تخيخه كما هو الشأن فى القردة العليا .

ولأمر ما نجهله نزل الانسان الأول ، وهو شئ بين الطرسير والقرد ، إلى اليابسة ، واستطاب الاقامة على اليابسة حيث الأمن فيها على الأطفال مكفول . لأن سقوط الأطفال من الشجر كان من الهموم العظيمة التى كان يعانيها أسلافنا قبل ملايين السنين ، واستطاع أن يسعى على اليابسة . يسعى بالوثب أولا ثم بالمشى ثانياً بالاعتماد على الرسغين .

ولكنا لما تركنا الشجر كانت أذنابنا لا تزال عالقة بنا ، بل هى لاتزال كذلك فى العصعص الذى يجمع عندنا من الفقرات ما يكفى لذنب محترم يليق لأى حيوان يعيش على الشجر ويتعلق بالغصون . وكل ما نحتاج إليه كى نسترد أذنابنا قليل من اللحم والجلد . . . ولكن إقامتنا على اليابسة أغنتنا عن الأذناب . لأن اليد كانت قد تحررت فصارت تتناول وتذب الهوام وتقتل الحشرات . وفى حيوان مثل الانسان قد استقر على أن يعيش على اليابسة ، يعود الذنب عبئاً يجب التخلص منه وقت القتال . وكان لا بد من زواله .

وكان لابد من أن نترك الشجر : أولا للأمن الذى ذكرنا ؛ لأن حياة الصغار على الغصون كانت عرضة لأخطار السقوط . وثانياً لأن غذاءنا من الأثمار لم يعد يكفينا ؛ وخاصة لأن الأثمار ليست دائمة إذ هى موسمية . وكسبنا من اليابسة جملة أشياء :

أولها أن اليد التى كانت قد كادت تتخصص فى القبض على الغصون قد

أصبحت مكلفة واجبات جديدة فى التناول . فتطورت الأبهام حتى صارت كأنها يد أخرى تواجه الأصابع الأربع لا تقف معها فى صف كما هو الشأن فى الأورانج أوتان الذى لا يزال ملازما لشجر ؛ فهو يحسن القبض على الغصن والتعلق به ، ولكنه لا يحسن التناول للحجر أو العصا . ثم اكتسبنا القامة العمودية للمشى .

وقد احتجنا فى هذا الانتقال من الشجر إلى اليابسة ومن القامة الأفقية إلى القامة العمودية إلى رباطات جديدة تربط أمعاءنا حتى لا تسقط . ولكن هذه الرباطات لم تتأصل فى طبيعتنا إلى الآن . كما نرى مثلا من هذا المرض البشرى ، والبشرى فقط ، أى الفتق ، حين تنهار الأمعاء عند الرجل وتسقط فى الكيس أو حين تفتق صرة المرأة وتخرج . فان هذا المرض الذى لا يمكن أن يصاب به كلب أو بقرة أو فأر نصاب نحن به للقامة العمودية التى اتخذناها ، ولما نحقق جميع أدواتها التى تحميها وتبقيها فى صحة وسلامة .

العين ، واليد ، والابهام ، والرسغ ، هذه الأربعة قد نقلتنا من طور الحيوان إلى طور الانسان ، وهيأت لنا حالا جديدة أو وضعاً جديداً استطعنا به أن نجعل الرأس كبيراً يتسع للمخ الكبير الذى كسا المخيخ بل طغى عليه . ولولا هذه الأربعة لما استطعنا أن نصل إلى الوجدان والذكاء والمعرفة ثم الحضارة والرقى . لأن المخ البشرى ، بالمقارنة إلى الجسم ، هو أكبر مخ على هذا الكوكب . ولولا أن قامتنا عمودية لما استطعنا أن نحمله . ولو كان هذا المخ البشرى فى رأس الذئب أو الفرس لكسر عنقيهما لأنهما يحملانه حملا أفقيا لا عموديا .

ولكن مخاً كبيراً بلا عينين تنقلان إليه أخبار الوسط لا قيمة له ؛ إذ لن يجد المادة التى تحمله على التفكير والمقارنة والاستنتاج أى الذكاء . ثم كذلك مخ بلا يد تصنع الأدوات والآلات لن يؤدى إلى اختراع حضارة . ثم كل هذا لم يكن مستطاعاً لو لم نقف على أرساغنا أى على كعوبنا وقفة عمودية .

سلامه موسى

المسرحيات الراقصة

لم تعد المسرحيات الراقصة فنا عابراً ، يأتى العواصم الأوربية مع الفرق التى تعنى بهـذا النوع من الفنون ، فيهرع هـواة الفن من الأوربيين والأمريكيين لمشاهـدته ، ثم ينتقل بانتقـال الفرق إلى بـلاد أخرى ، حيث تعرض هذه المسرحيات الراقصة . بل صار هذا الفن فى السنوات الأخيرة ، فنـًّا مقيما فى العواصم والمدن الكبرى الأوربية والأمريكية ، وصار له هواة وجمهور لا يختار منه بديلا ، وصارت هنالك مسارح تقف عملهـا عليه . وتلك جرأة من فن لم يكن له ثبات قبل عصر السينما الذى طغى على كل شئ . وإن فنـًّا يثبت هذا الثبات فى زمن سيطر فيه فن السينما ، لخليق بأن تكون له ميزات ، وفيه صفات ، تستحق هذا الثبات وهذا الاقبال من جمهور فنى .

فنحن نعلم ما عاناه المسرح من مشاق للثبات فى وجه السينما . ونعلم كذلك كيف قاوم المسرح فى ذلك وناضل . ثم أخذ القائمون بة يحاولون ويبتدعون كى يظل الفن الذى يعملون له قائما فى الحياة ، مع أن لفن المسرح تاريخا مجيداً يمتد إلى أجيال ، وتحسب سنو حياته بما مرّ من عصور منـذ المدنية اليونانيـة والرومانية على الأقل ، وقد يكون إلى أبعد من ذلك فى الأمم الأخرى . فلعل المسرح قد رأى فجر المدنية وعاصرها ، وولد حين بدأ الانسان يفضل نتاج الفكر على المادة .

إلى هذا الزمن البعيد يرجع تاريخ المسرح ومجده المؤثل . ومع ذلك نراه قد تراجع أمام فن دخيل لم يمض عليه أكثر من خمسين سنة . وبدت عليه إثر تقدم السينما عوارض الشيخوخة ، بل ظهرت عليه علائم الانحلال فجأة ، لولا أن تداركه رجال الفن من محبيه ورواده ، فأمدوه بدم جديد ، وأمـدوه بالأدوية المجددة للشباب ، فتمكنوا من أن يحتفظوا له بحياته فى أخطر فترة مرت عليه ، ثم أعادوا إليه الكثير من روائه .

ولكن ثمة فناً كان إلى نيف وعشر سنوات لا يستطيع الحياة فى العواصم والمدن ، بل كان يتنقل من مكان إلى مكان . وقد ألفى هواة فى كل مكان حلّ فيه ، وألفى ترحابا من جمهور محب ؛ ولكن كان الشك كبيرا فى ثبات هذا الجمهور على حبه ، وكان الشك كبيرا فى اخلاص هؤلاء المحبين . وإذا كانت المسرحيات الراقصة لها رواء لا يمكن أن يقاس إلى جانبه رواء المسرح العادى فى رواياته التمثيلية ، أو السينما فى نوره الخاطف ومناظره المتنقلة السريعة وسط الظلام ، فانه لم يكن من المتوقع مع ذلك أن يوجد لهذا الفن جمهور ثابت لا يحب أن يجد منه بديلا .

لكى نستطيع أن نقدر هذه الأعجوبة فى عصر تسلطت فيه السينما على العقول ، يجب أن نبحث قليلا فى الفرق بين هذا الفن والفنون القريبة منه والمنافسة له ، ثم نبحث قليلا فى كيانه وما ينتظر له من مستقبل .

لننظر ونفكر . ما هو الفرق الأساسى بين الروايات التمثيلية وبين السينما ؟ أليس السينما نوعا من المسرح ؟ أليست القصص السينمائية قصصا تمثيلية يقوم بها ممثلون كممثلى المسرح ويخرجها وينظمها ممثلون كمخرجى المسرح ومنظميه ؟ هذا صحيح ولكن الفرق الأكبر فى أمرين : أولها أن السينما يستطيع بوسائله أن يتخطى حدود المكان الذى يقف فيه الممثلون ، وتلك ميزة السينما الكبرى ؛ تلك ميزته التى أدت بالمسرح حيناً إلى أن يتراجع ويترنح تحت طعنة السينما . فهذا الانتقال السريع من مكان إلى مكان ، وتلك المناظر التى يستطيع الاخراج السينمائى أن يطلعنا عليها فى طرفة عين ، وتلك الدور التى يهتك لنا أسرارها بعصا ساحر ، وتلك الرحلات التى نعبر بها المحيط فى لحظات معدودات ، بل قد تنقلنا إلى الكواكب والعوالم المجهولة فى مثل لمح البصر ، تلك ميزة السينما الكبرى .

ولكن إذا أخذنا الأمور على ظاهرها فاننا نكون مخطئين . فما تلك الوسائل التى التجأ إليها فن السينما إلا وسائل مادية ، دعمت بما ظفر به هذا الفن الحديث من إقبال ، ودعمت بالبذخ والاسراف فى الانفاق على هذا الفن الوليد . وقد ننسى شيئاً هاماً فى الفن ، بل ننسى أهم قوام للفن ، إذا نحن نسينا أمراً واحداً ، وهو أن الفن لا ينشأ ولا يقوم إلا نتيجة للحياة الروحية ، وأن الفن يعتمد على الفكر والروح ، قبل أن يعتمد على الجهد الآلى والمادة .

وذلك هو الفرق الثانى . فالواقع أن القصص التمثيلى لم يبلغ هذه المكانة التى بلغها ، ولم يثبت على مر العصور ، ولم يسخر أقلام رجال يعدون من أنبغ الذين ظهروا على وجه الأرض ، إلا لأنه فن يعتمد على الفكر والروح بالرغم من كل شئ . فلقد عرف هذا الفن تلك المدرجات المستديرة الطلقة فى الهواء ، حيث يجلس النظارة على الصخر ساعات طويلة ، ويتتابع الممثلون وعلى وجوههم الأقنعة فى منظر عجيب ، ثم ينتقلون بالحديث وحده من بلد إلى بلد ، ويضربون فى أرجاء عرض الأرض . ولا يرى النظارة من هذا الانتقال شيئاً ، بل يرون أمامهم المنظر الثابت للطبيعة سواء أكان خلف الممثلين فضاء أو بناء أو بحر . ومع ذلك لا يجد النظارة فى ذلك ما يضحك بل يصغون إلى الحديث واجمين أحياناً ، مبتسمين أحياناً أخرى ، مظهرين السرور إذا دعاهم الممثل ، أو راثين له ولحالته . ولقد عرف الفن خشبة المسرح التى يكتب على لوحة فيها : هذا بيت أو هذا حائط أو تلك غابة لتدل على المنظر ، ومع ذلك لم ينكر النظارة شيئاً ، بل ظلوا يصغون إلى حديث الممثلين فى صمت ، ويصدقونهم حين يبدو من كلامهم أنهم فى أرض الدانمرك ، أو على ضفاف بحر خضم مثلا ، وهم يبكون لبكاء الممثل ، ويفرحون لفرحه ، ويشاطرونه حلو الحياة ومرها ، دون أن ينكروا عليه شيئاً .

فلماذا نراهم يفعلون ذلك ؟ ولماذا نراهم يغمضون أعينهم عما تقع عليه أنظارهم ، ولا يستنكرون على الممثل خداعه لهم على هذه الصورة الصارخة ، أليس ذلك لأنهم لا يعنون فى المسرح إلا بالروح ؟ أليس ذلك لأن الممثل لا يخاطب إلا عقولهم ونفوسهم ، ولا يهم بعد ذلك ألا يمثل المنظر الذى أمامهم الحقيقة سواء أكان قطعة من الخشب أو قطعة مدلاة من القماش ؟ أليس ذلك لأن الاتصال بينهم هو اتصال فطرى وروحى ، فالممثل يلقى عليهم خلاصة فكر الشاعر أو الناثر الذى ابتدع القصة ، وهم يتصلون بهذا الفكر اتصالا يأخذ بنفوسهم وعقولهم ؟ أظن ذلك .

هذا هو الفرق الكبير بين المسرح والسينما : تلك الحرارة التى تصل بين الممثل والمشاهد لا تجدها فى السينما ؛ وإن وجدتها ، فهو اتصال بارد يتفق مع تلك الأشباح المتحركة دائما ، الزائلة دائما . وذلك هو فيما أظن الذى أبقى على المسرح واستطاع به المسرح أن يعيش إلى جانب السينما ،

وأن يبرأ من الطعنة التى وجهت إليه والتى كادت تكون قاتلة . لم يعش المسرح لأن العاملين فيه قد حاولوا أن يستفيدوا من وسائل السينما ، وأن يزيدوا من استعمال الاضواء وما إليها استعمالا جديداً يشبه الطرق التى كانت فتحا فى السينما ؛ وانما عاش المسرح بطبيعته ، وعاش بذلك التراث العظيم من نتاج العقول ، وبذلك الاتصال الروحى الذى نجده فى المسرح ونفتقده فى السينما ، وبتلك الحرارة التى تصل بين الممثل والمشاهد ، فلا يقوم بينهما حجاب ولو كان ستاراً أبيض .

أخرج المسرح كشأن كل فن كبير أنواعا من القصص التمثيلى . ونحب لكى نصل إلى المسرحيات الراقصة ، أن نتكلم قليلا عن نوع له اتصال كبير به ، وهو النوع المسمى لدى الأوربيين بالأوبرا . فالأوبرا ليست إلامسرحية تمثيلية معظم حديثها غناء لا القاء ، بل قل إن حديثها كله غناء . فهى مسرحية أنشأها حب الموسيقى أكثر مما أنشأها حب التمثيل ، وقد أريد بها أن يجمع المشاهد بين متع عدة . ولذلك كانت الأوبرا فنا نشأ فى عصور حديثة ، واستعين فيه بفنون عدة ، فاهتم المخرجون للأوبرا بالمناظر ، واهتموا بالموسيقى طبعا أكبر اهتمام ، كما أعاروا التمثيل والحديث شيئا من الاهتمام . وحين تعذر عليهم الجمع بين هذه الأنواع ، كانوا يفضلون الموسيقى فى الأوبرا على غيرها من الفنون ، بل يضحون بالفنون الأخرى فى سبيل فن الموسيقى . وكانوا أحيانا يزيدون على هذه الفنون فنا آخر فيستعينون بالرقص فى مناظر ، وفى مناسبات أو فى غير مناسبات .

وفن الأوبرا على ماله من رواء اجتذب أعاظم الموسيقيين ووجد إقبالا من جمهور محب ، وتشجيعاً من نخبة المهتمين بالفنون ، إلا أنه فن ناقص فى جوانب منه . ويجب عليك أن تغمض العين على أمور كثيرة ، إذا كنت تريد أن تستمتع حقا بالأوبرا وتجد لها لذة .

قلنا إن الأوائل كانوا يسلمون أنفسهم لحديث الممثل دون أن يأبهوا للمنظر الذى لا يتحول ، وفى بعض العصور دون أن يأبهوا للاشارات المضحكة التى تدل على المنظر . ولكن ما رأى المشاهد للأوبرا حين يجد حديث الممثل كله غناء وهو يعلم حق العلم أن الناس لا يتغنون فى حديثهم ،

فهم لا يأمرون خادمهم باحضار الطعام متغنين ، ولا يخاطب الملك رجال حاشيته وهو يرفع الصوت ويخفضه على ايقاع الموسيقى ، ولا ترد عليه حاشيته القول وهى تصيح صيحة موسيقية ؟ إذن على المشاهد للأوبرا أن يغمض عينيه ، بل عليه أن يفعل أكثر من ذلك ، عليه أن ينزل عن جزء كبير من عقله . والمنظر بعد ليس شيئا هاما ، إذا كنت تصغى لحديث من الأحاديث . فانك قد تستغرق فى الحديث مع صديق فتنسى كل ماحولك ومن حولك . ولكن هل تستطيع أن تجد متعة فى حديث صديق تراه يغنى عباراته فى ترجيع ورفع وخفض لنغماته دون أن تلغى أو على الأقل تقف شيئاً من عقلك ؟ ذلك ما يفعله المشاهد للأوبرا .

فالأوبرا نوع من الفنون لا يخاطب العقل بقدر مايخاطب العاطفة . لذلك كان أدنى إلى الموسيقى منه إلى المسرح . وبسبب هذا الغناء المستمر لا يستطيع الممثل أن يتقن حركاته ، وكل ما يحاول أن يتقنه هو حسن الأداء فى الغناء . وبسببه لا يستطيع الشاعر الذى يضع الحوار أن يتقن حواره ، فهو خاضع لتحكمات الموسيقى . ولذلك قيل إن خير المؤلفين للأوبرا ليس هو الشاعر الكبير ، بل هو الناظم البسيط الذى لا يتقن الشعر . والمشاهد كما رأينا يجب أن يتخلى عن كل شئ إلا أن يتبع الموسيقى بعاطفته . فكأن للموسيقى الدور الأكبر ، وهى المتسلطة فى الأوبرا . ومع ذلك ، ومع أن هذا الفن يجتذب إليه جميع الموسيقيين بقوة سحرية لا تدفع ، فان الكثير من أعاظمهم يرون أنه ليس من أرفع أنواع الموسيقى ؛ لأنهم يشعرون بما على المؤلف الموسيقى من قيود يخضع لها بالرغم من أنه المسيطر ، فهو ملك فى هذا الفن ، ولكنه ملك مقيد .

وإذا كان المؤلفون الموسيقيون لفن الأوبرا فى القرون الأولى من حياة هذا الفن ، أى فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، كانوا يجدون غاية النجاح وبلوغ أربهم فى تلحين إحدى الأوبرات أو عشرات أو مئات منها ، فان الموسيقيين فى القرن الثامن عشر بدءوا يوقنون أن الفن الموسيقى الحقيقى هو فى الموسيقى الخالصة . ومع ذلك ظلوا واقعين تحت تأثير المسرح وممثليه . فكان أكبر آمالهم النجاح فى فن الأوبرا ؛ ولذلك عرف هذا الفن ألحان موتزارت الساحرة . وكان موتزارت عظيما فى الموسيقى الخالصة ،

كما كان عظيما فى أوبراته . بل إن جباراً من أكبر العقول التى أخرجت الموسيقى الخالصة إن لم يكن أكبرهم جميعاً وهو بتهوفن ، كان من أكبر آماله أن ينجح فى المسرح ، وترك درة من نوع الأوبرا فى مسرحيته فيدليو وكان طوال حياته يبحث عن موضوع آخر .

فللأوبرا إذن بريق يجذب الموسيقيين إلى هذا الفن ، وإن أخذوا منذ أوائل القرن التاسع عشر ينزلونه منزلة ثانوية ، ويشعرون بما فى هذا الفن من نقص ، ويجدون فى الشعر الملحن ما يعوقهم عن التعبير بالنغمات ، وما يقيدهم دون إطلاق ذلك الوحى الذى ينزل على عقل العبقرى . وإذا كان القرن التاسع عشر قد رأى الموسيقيين قد تنبهوا إلى معايب هذا الفن ، فانه رأى أيضاً أعظم العاملين لنهضته والعودة به إلى الشباب ، فى شخص موسيقى من الموسيقيين النادرين هو ريتشارد فاجنر الألمانى .

يطول بنا القول إذا أردنا أن نشرح ما كتبه فاجنر فى كتبه النظرية ، أو أن نحلل ما وصل إليه فاجنر فى مؤلفاته للموسيقى المسرحية . ولكن يكفينا القول ، والقول المختصر جدا ، إن فاجنر أتى بنظرية جديدة يصلح بها من شأن الأوبرا . فقد رأى أن الأوبرا هى انعكاس للحالة الاجتماعية السائدة ، فهى إذن فن أنانى ، لأن الموسيقى تريد أن تتسلط فيه ، وأدى ذلك إلى أن أصبحت الأمور الأخرى من قصة وتمثيل ومناظر ، إن هى إلا أمور ثانوية . ولذلك لا ينتظر لهذا النوع من الفن حياة . بل يجب لكى ينهض هذا الفن ويكون عملا فنيا حقا أن يتجه نحو ما أسماه الدراما الموسيقية ؛ وهو نوع يتألف من جماع فنون ، أو على قوله فى بعض مؤلفاته من شيوعية فنون ، أى اشتراك الفنون فيما بينها . فيجب إذن أن يتعاون الشعر والموسيقى والمنظر فى خلق جو هذه الدراما الموسيقية . فيكون هذا النوع من المسرحيات مؤثرا لا فى ذكاء المشاهد وعقله ، بل فى عواطفه وإحساساته الغريزية . ولكى نحقق موضوع هذه الدراما الموسيقية يجب أن يكون الموضوع ذا أهمية كبيرة ، وأن يكون بسيطاً يعود بالناس إلى مشاعرهم الأولى . ولا يتحقق ذلك إلا باتخاذ الأساطير موضوعا ؛ لأن الموضوعات التاريخية تبتعد بالمؤلف عن هذين الشرطين . ولا ريب فى أن الغرض من اشتراط أهمية الموضوع هو ألا تتغلب الموسيقى على الشعر ، بل يقف الاثنان على قدم المساواة . وكذلك يكون

التصوير للمناظر والاضاءة وغير ذلك من وسائل المسرح من أهم ما يساعد فى الدراما الموسيقية .

تلك نظريات فاجنر فى عبارات قصيرة قد لا تغنى ، وهى مقتضبة كل الاقتضاب ؛ لأن نظرياته الفنية جديرة بدراسات وكتابات واسعة . ولكننا قد ذكرنا ما يكفى لفهم هذه النظريات وتأثيرها فى فن الأوبرا .

فهى نظريات عظيمة حقا ولكن يصعب تحقيقها . على أنها وجدت من يحققها فى فاجنر نفسه ؛ إذ كان فاجنر شاعراً مسرحيا من الطبقة الاولى من الشعراء ؛ لا نقول إنه فى الشعر من كبار العبقريين ، ولكنه لم يكن مجرد ناظم ، وكان شاعراً ممتازاً . وإذا كان لم تطر له شهرة بالشعر المسرحىّ ، فذلك لأن الناس شغلوا بموسيقاه عن شعره ، فهو من أعاظم الموسيقيين بلا مراء . وعبثاً يحاول بعض المعادين لنظرياته فى عصره وفى العصر الحاضر أن ينتقصوا من قدره . فهم يستطيعون أن يمنعوا تمثيل مسرحياته الموسيقية ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا فضله وعظمته فى الموسيقى .

لسنا نريد أن نصف كيف كان فاجنر يؤلف الشعر ويلحنه ويبتدع المناظر لرواياته التى اقتطعها من الأساطير الجرمانية القديمة . وكيف أدى به الأمر إلى أن عمل لانشاء دار لتمثيل مسرحياته خاصة ، وهذه الدار قائمة الآن ، وما ابتدع فيها من نظام ، فكل هذا له مكان آخر . على أن كل ما نريد أن نقوله إنه إذا كان فاجنر هو أول من استطاع أن يجمع بين الفنون ، فربما كان آخر من استطاع أن يفعل هذا . ومعنى هذا أنه كان الوحيد الذى استطاع أن يحقق نظرياته . أما هذه النظريات فقد كانت أملا تحلم به نفوس الموسيقيين الذين تلوه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولكنها كانت أملا خلابا وخائبا . فلم يستطع أحد من أنصاره ومقلديه أن يبعثوا الحياة فى هذا النوع من بعده . وعاد المؤلفون الموسيقيون إلى نوع الأوبرا المعروف من قبل بمعايبه القديمة ، وإن استطاعوا أن يخفوا هذه المعايب قليلا بعد أن تعلموا من فاجنر كثيراً .

لا أستطيع أن أترك القول فى الأوبرا دون أن أذكر موسيقيًّا فذًّا ، هو رجل لم يأبه بفاجنر ونظرياته ، نظر إلى هذا الفن نظرة غريبة وبعيدة

عن روحه القديم . هذا الموسيقى هو كلود دبوسى فى تلحينه لمسرحية « بلياس ومليزاند » .

اتخذ دبوسى مسرحية مترلنك بعباراتها النثرية التى ترتفع إلى مرتبة الشعر ، ورسم فصول هذه القصة الرمزية بموسيقاه دون أن يلجأ إلى الترديد والتلحين فى الغناء ، بل العبارات تنطق بنغمات تكاد تكون نغمات الحديث العادى ، والموسيقى تترجم دائماً العواطف الثائرة التى تكتنف تلك القصة ، وتحيى فى أذهاننا صوراً من عصر القصة التى تقع حوادثها فى قصر من قصور العصور الوسطى .

لذلك لا تجد فى فن دبوسى ما يناقض المواقف التى تألفها فى الحياة . فهو ينتقل بنا فجأة بألحانه الأولى إلى جو القصة ، ولا تشعر بغرابة فى حديث الممثلين ، فهم لا يتغنون ويرددون ويرجعون اللحن ، بل هم يتكلمون حديثاً يكاد يكون طبيعيا ، ولا نجد غضاضة فى قبوله لأننا نشعر منذ اللحظة الأولى بأننا انتقلنا من جو الحقيقة إلى جو الخيال . وفى تلك المواقف الصاخبة ، كموقف الزوج الغيور يرفع صبيا لكى يستطيع الصبى أن يرى ما يجرى من زوجه داخل نافذة ، نشعر بصورة حقيقية للغيرة تطل علينا ، فتبدو لنا آلام الزوج مرتسمة بصورة لا يمكن أن نرى لها مثيلا إلا فى بعض مشاهد عطيل .

فى الحقيقة أن دبوسى أحيى فن الأوبرا إحياء جديداً مبتكراً يختلف كل الاختلاف عن نظريات فاجنر ، ولا نجد فيه أى نوع من الغثاثة التى نجدها فى فن الأوبرا العادى . ويخرج المشاهد بنوع من الرضا والمتعة العقلية لتحقق الفن كاملا ، بشئ شبيه كل الشبه ، كأنه أخ شقيق ، بما نشعر به حين نشاهد مسرحية راقصة .

ليكن أصل المسرحيات الراقصة ما يكون : هل هى تمتّ إلى السحر واسترضاء الآلهة القدماء كما قال بعض الباحثين فى الرقص وفى الموسيقى أيضاً ؟ هل منبعها ونشأتها من المسرح اليونانى شأن جميع المظاهر الفنية والأدبية فى هذا العصر إذ يرجع فضله إلى اليونان ؟ هل المسرحيات الراقصة نمت وترعرعت فى بلاط لويس الرابع عشر ، حين كان يشترك فيها الملك نفسه ومن فى بلاطه من رجال ونساء ؟ ليكن هذا أو ذاك فنحن لا نقصد إلا المسرحيات

الراقصة التى ألفها الناس الآن ، والتى تجد جمهوراً فنيا مستمراً فى عواصم انجلترا وأمريكا ؛ أعنى ذلك الفن الذى عرفته أوربا وكان فتحاً فنيا جديداً فى أوائل هذا القرن ، حين خرجت فرق الرقص العجيبة من روسيا لتتجول فى أنحاء أوربا ، وتنشر هذا الفن الذى نقلته روسيا عن الغرب وهو فى شيخوخته ، فتمكنت بمعجزة أن تعيد إليه الحياة وتخرجه إلى الناس شابا فى رونق جديد .

فلقد شعرت أوربا حقا ، حين رأت فرقة دياجليف وحين شاهدت رقص بافلوفا ، أنها أمام فن جديد كأن لا عهد لها به ، ولا صلة بينه وبين تلك الرقصات التى كانت تتخلل الأوبرات الفرنسة والايطالية ، والتى لا معنى لها غير ظهور جماعة من فتيات جميلات خفيفات الحركة ، يردن التعبير بحركاتهن عن لا شئ أو عن شئ ضئيل . ومع ذلك فان هاته الرقصات قريبة النسب من الرقص الروسى كما عرف فى أوائل هذا القرن ، ولكن الروس جددوا شبابه .

كيف فعلوا ذلك ؟ إنهم فعلوه بأمور عدة ، من أهمها أن الرقص الروسى لايقنع بالفتيات بل يشترك فيه الفتيان ، وبذلك تكمل الصورة فيمكن التعبير حقا عن الحياة .

فالفتيان عنصر هام فى الرقص الروسى . وإذا كانت للفتيات الخفة والرشاقة ، فان للفتيان القوة والحركة الرياضية السريعة . وقد لجأ الروس إلى الموسيقى يستلهمونها موضوع رواياتهم ، وأرادوا أن تكون هذه المسرحيات معبرة كل التعبير عن القطعة الموسيقية . ولا ريب فى أن المسرحيات الراقصة وجدت إقبالا وسعونة كبيرة من الموسيقيين . فقد رأينا الموسيقيين ، بالرغم من شعورهم بما يعتور فن الأوبرا من نقص ، يقبلون عليه ويجدون فيه ما يجذبهم ، وقد يكون ذلك على غير إرادة منهم . وقد جذبوا إلى الفن الجديد بأسرع مما جذبوا إلى الأوبرا . فان العيب الأساسى فى الأوبرا ، وهو ذلك العائق الذى يجده الموسيقى من اضطراره إلى اتباع الحديث والحوار ، قد تخلصت منه المسرحيات الراقصة نهائياً . لأن المسرحيات الراقصة ليس فيها كلام مطلقاً ، وإنما التعبير فيها بالحركات والاشارات ، كما أن التعبير فيها بالموسيقى والمناظر . ومن الطبيعى أن تزداد الموسيقى فى هذه المسرحيات تسلطاً ، ومن الطبيعى إذن أن يكون للموسيقى الدور الأهم فى هذه المسرحيات .

ونشأ نوعان من المسرحيات الراقصة : أحدهما تؤلف له الموسيقى خاصة فيقبل المؤلف الموسيقى على وضع الألحان المناسبة لموضوعه . وعلى الراقصين والراقصات الذين يمثلون موضوع الرواية أن يتبعوا موسيقاه حسب إشارة المخرج وتصريفه .

أما النوع الآخر فذلك هو اقتباس قطعة موسيقية لم توضع لهذه المسرحيات ، وإنما وضعت لتعزف فى الحفلات الموسيقية ؛ ولكن أراد مؤلفو المسرحية الراقصة أن يعبروا فى مسرحيتهم عن الصورة التى ترسمها الموسيقى فى عقولهم . فالموضوع أوحته موسيقى لم تكن قد وضعت له . وقد لاقى النوعان نجاحاً كبيراً ، وأمكن فى النوعين خلق متعة فنية كبيرة .

ولنذكر مثالا على النوع الأول مسرحية بتروشكا التى لحنها الموسيقى الروسى سترافنسكى . فهى تعد من خير المسرحيات الراقصة . وهى فى موضوعها وفى شخصياتها وفى ألوانها مثال للمسرحيات العظيمة ، كما أنها تمثل فى موسيقاها الموسيقى الروسية فى أروع مظهرها . وتكوين هذه المسرحية فريد فى بابه : فنحن نرى فيها جماعة من الممثلين والممثلات ذاهبة وجائية ، وهى تلعب دوراً ثانويا ولكنه على جانب من الأهمية ؛ فهى لا تشترك فى الرقص ولكنها تتحرك وتمثل . ونرى بين هذه الجماعة التى هى تعبير عن الجماهير ، شخصيات ترقص أحيانا رقصات وطنية ، ولكنها جزء من الجماهير أيضاً ، أما فى مواجهة النظارة فنجد الأشخاص الحقيقيين لهذه المأساة الراقصة : وهم بتروشكا والمغربى والراقصة والأفاك . ومن هذا المزيج بين الجمهور والشخصيات الأساسية للقصة نفهم هذه المسرحية فهماً دقيقاً وكأننا نسمع حواراً فى مأساة من المآسى التمثيلية الشهيرة . وتتميز شخصيات الممثلين الأصليين فنعرف تلك الراقصة التى تغازل الرجال وتلعب بهم بلا مبالاة ، ثم تلقى بهم إذا ما انتهت من عبثها . ونعرف ذلك المغربى القوى المتوحش الذى يرتعد فرقا من المجهول . ونعرف بتروشكا الشاب المتيم . وهكذا إلى أن نصل إلى المأساة الأخيرة .

ومن النوع الثانى تلك الرقصة التى اشتهرت بها بافلوفا وعرفت باسم موت البجعة ؛ وهى تقوم على قطعة موسيقية لسان سانس ، أو رقصة كرنفال التى بنيت على ألحان للموسيقى شومان ، أو رقصة السلفيد التى نظمت موسيقاها من ألحان شوبان .

استعملت المسرحيات الراقصة إذن الموسيقى المؤلفة لها خاصة ، كما استعملت موسيقى كبار الموسيقيين السابقين . ولقد ظهرت طائفة من الموسيقيين يؤلفون ، أو على الأصح يقبلون على التأليف لهذه المسرحيات . ومن الطبيعي أن يكون من أشهرهم مؤلفون روسيون ؛ فقد تطور هذا الفن عندهم ، وعندهم استطاع أن يكون متعة للأعين ، كما هو متعة للفكر . فالمناظر والملابس ومواقف الممثلين ورقصاتهم ، وتحركهم ، كل هذه متعة للأعين تستولى على قلب المشاهد ، لا يقطعها الانتباه إلى حديث أو حوار ، وترى الموسيقى لا تفتأ تشرح وتتحدث وتحاور . فهذه المسرحيات الراقصة متعة للعقل مشتركا مع العاطفة . ولذلك أخذت الجماهير من عامة المثقفين تتعلق بهذا الفن ، كما فتن به في أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضي ، الخاصة من رجال الفن والأدب من مصورين وشعراء وموسيقيين .

حسن محمود

الفنانة الحائرة !

كانت حياتك لحناً مبللاً بالدموع
فصار موتك حزناً لهيبه في ضلوعي
أتى الربيع فغنى بكل لحن بديع
فاهتز قلبي وأنا وهام بين الربوع
صبا إليك وحنا وأنت... روح الربيع

الشاعر الحائر

جنّبوا قلبي على الحب الملاما هل علمتم في هوى قلبي أثاما ؟
واسمعوني حين يشدو بِعزفي لحن ... قلبي ثم يرتد حطاما !
واعذروني حين أرجو مُكرَّها أن أرى نفسي - كما كانت - رَغاما
خيَّم اليأس بقلبي والأسى فإلامَ الصبر يا قلبي ... إلاما ؟
ومضى الموت « بآمالي » ، فما أرهبُ الموت ، وإن كان زؤاما
ليت شعري كيف أحيا بعدها ؟ ولمن أبعث شعري ؟ وعلاما ؟
إنها كانت لنفسي بهجة إنها كانت على قلبي سلاما
كنت أهواها بقلب يائسٍ كوكباً حلَّ مكاناً لن يُراما

زهرةً يمـلأُ قلبى عطـرها ... وهْى لا تألو عن العين اكتتاما
كنت أهـواها ، وأخفى ألمى ... وأريه للخليين ابتساما
ولقـد هز حيـاتى أن أرى ... زهرة الأيام ترتاد الرجاما
أودعوها فى مكان موحش ... طنَّب المـوت حواليـه الخياما
حيث لا أنداءَ تنهـلُّ بهـا ... ومن الأنداء ما بل الأُواما
حيث لا أضواءَ يحملن لهـا ... قبـلات الفجر شوقا وهيـاما
حيث لا أنسامَ تهفـو نحـوها ... فـتريهـا الحب لثما والـتزاما
حيث لا أطيـارَ تشدو حولهـا ... فتحيِّيهـا ، وتهـديهـا السلاما
إيه يا دهر أحقٌّ ما نرى ؟ ... أم ترانا أيهـا الدهر نيـاما ؟
ليتـه حـلم ، فنَلقى صحوة ... تطرد السُّحْب ، وتجتـاح الغماما
آه ما أقساك يا دهر ! وما ... أضعف الناس ! وما أقوى الحِماما !
قد عهـدناك خَـؤونا غادِراً ... تنقض العهـد ، ولا ترعى الذماما
أنت لم ترحم قـلوبا أترعت ... كأسَهـا الأيامُ حزنا وسقاما
روَّعتهـا بغتـة النعْى كما ... روَّع الصائد فى البيـد النعـاما
وتولاَّها ذهـول مُطْبِـق ... لم تُفق من هَوْله إلا لِماما
أنت لم تعطف عـلى قمرية ... تملأُ الأيام شدواً وبُغاما (كذا)
كلمـا غنّت عـلى أفنانهـا ... رفرف القلب حواليهـا وحامـا
قلبهـا كان جراحـا لم تزل ... من يد الأيـام تبغى الالتئامـا
صوتهـا كان نُواحـا ! حسْبُه ... أنه قـد علَّم النَّوْحَ الحَمامـا
شـاعت الأحزان فيـه مثلمـا ... شاع نَفْح الزهر فى ريح الخُزامى
واستحـال القلب فيـه نغمـا ... يستثير الحزن ، والدمع السِّجاما

كلما اهتز ترامت نحوه مهجٌ ثكلى ، وأرواحٌ أيامى!
ليت شعرى كيف وافاها الردى دون أن يخشى من الدنيا ملاما ؟
ليته لم يرها ، أو ليته إذ رآها كان عنها يتعامى!
غرقت فى ساعة مشئومة كان فيها الشر قد ألقى اللثاما
آه يا دهر لعمر موحش ولأيام كأيام اليتامى !
ما الذى ضرك لو أبقيتها تسعد الكون الحزين المستضاما ؟
وترينا الفن قلبا نابضا يبعث اللحن صفاء وانسجاما
وتغنينا غناء ساحرا يملأ الأرواح صفوا ووئاما

هل درى القبر الذى حلت به أىّ قلب قد ثوى فيه وناما ؟
هل درى أى شباب يانع وجمال رائع ضمّ غراما ؟
هل درى أى حياة حرة أصبح الموت لها قيدا لِزاما ؟
إيه يا قمرية النيل التى طالما غنّى بها النيل وهاما
وسقاها الحب فى خمرته فسقته فى أغانيها المداما
وتجلت فى رُباه ، فهفا نحوها الموج مشوقا مستهاما
أين فن كان فى الدنيا سنًا بينما كان بجنبيك ضراما ؟
أودعوه حفرة مظلمة ! ليت قلبى كان للفن مُقاما
أين تغريدك ؟ قد أمسى صدًى باكيا . . . فى كل أفْق يترامى !
أين قيثارك . . . قيثار الهوى ؟ عربد الدهر ، فألقاه حطاما !
ولياليك التى غنّتْ بها مهج نالت من الفن المراما
ورواها النيل فنّا رائعا وشَدَتْها الطير لحنا لا يُسامى!

ليتها كانت علينا سرمدا فسهرناها ، وأنكرنا المناما
ذهبت تلك الليالى مثلما ذهب الزهر مع الريح ركاما
فانتهى السامر من أفراحه وانطوى الأنس بساطاً ونَدامى
وبدا الصبح حزينا شاحبا فكأن الصبح قد حال ظلاما !

رُبَّ شاكٍ ظلَّ يقضى عمره يعبر السهل ، ويجتاز الأكاما
لا يذوق الأمن إلا خلسة أو يرى طيف الكرى إلا لِماما
يرجع السَّفْر إلى أوطانهم وهو يرتاد النَّوى عاما فعاما
أذن الله ، فألقى عبئه ودعا الموتُ ، فلبىَّ وأقاما
فاهدئى أيتها النفس التى لم تكن تلقى هدوءاً أو سلاما
وأقيمى فى ثرى مصر ، فما كنت تبغين سوى مصر مُقاما
وثرى مصر على طول المدى كل ما فيه عزيز لن يُضاما
جاورى يا أخت فى هذا الثرى إخوة شمًّا ، وأحبابا كراما
لم يكن عمرك إلا غنوة تبعث الشوق ، وتهتاج الغراما
كنت تبكين إذا غنَّيتها ! أترى صيغت دموعا أو كلاما ؟
لم يكن عيشك إلا قصة صاغها الله « غراما وانتقاماً »
أنت مثَّلت لنا أحداثها فاذا الموت لها كان ختاما !

ليت شعرى — والأسى مشترك لم يَدعْ مصر ، ولم يُخلِ الشآما —
من أعزى ؟ كلَّ روح إن رأى مطلع الالهام والوحى ترامى
صيغ من نور ، وفى أعماقه جذوة تحيا مدى الدهر اضطراما

يأخذ الفن سبيلا للعُلا ويراه — إن دعا المجدُ — إماما
ويرى الأحلام دنياه التى طار فى أجوائها العليا وهاما
هى من أشواقه منسوجة راحة كبرى وأمنا واعتصاما

نضَّر الله ضريحا قد حوى درة كانت على التُّرْب حراما
وسقى البهجةَ ما قد حفُّها فغدا بردا عليها وسلاما

ابراهيم محمد نجا

من هنا وهناك

عبر البحار ! . . .

مهداة للدكتور طه حسين بك

. . . لك يا صاحبي أن تركب البحار ، وتمخر المحيطات ؛ ولك أن تمتطي ظهر السفين وتداعب أمواج الخضم . لك أن تستمتع بهواء البحر العليل ونسماته العذاب . . . لك ما شئت من دوار البحر وتلاطم أمواجه ، ولك بعد ذلك ما أردت من الأهوج الهدّار . . . فلا أحد ينازعك فيه ، ولا عليك من عشاقه ومحبيه ؛ . . . استأثر به ما وسعتك الأثرة ، واحتضن أمواجه ما كان إلى ذلك سبيل . دع نسماته تداعب وجهك وهدير أمواجه يداعب أذنيك ؛ دع السفين تتقاذفك أنىّ شاءت وحيثما أرادت . ولك بعد هذا وذاك أن تسأل الربان أن يمد فى أجل السفرة وأن يحول بينك وبين الساحل ولو لأمد قصير . فاذا انتهيت إلى الساحل ووطئت قدماك أرض الفرنسيس فلا تنس أن لك فى الشرق إخوة حال البحر بينهم وبينك ، فلا هم بقادرين على عبوره إليك ، ولا أنت مشفق عليهم فتعود إليهم من قريب . . .

أذكر أن لك فى العراق محبين ، وبأدبك مغرمين وبأسلوبك معجبين فلا تبخل عليهم بما أنت قادر عليه . . .

لك يا صاحبي أن تأخذ قطار مرسيليا إلى باريس ، وأن تستقر فى الشانزلزيه . . . ولك أن تفضل الحى اللاتينى حى الجامعة ، حى العلم والعرفان على ما سواه ؛ لك أن تنعم بمغانى غابة بولونيا ما شاءت لك نفسك . . . لك ما شئت فى مفاتن باريس وسحر السين ، لك كل ما فى مدينة النور من مكتبات ؛ وكل ما فى برج ايفل من مفاتن ، ولك بعد ذلك كل ما فى فرنسا من غذاء العقل والروح ! . . . لك يا صاح كل هذا وذاك ؛ فما من أحد يقف بينك وبين ما تبغي . . . ولكن لا تنس أن لك فى مصر أصدقاء يتمنون دوماً ألا تخلى بينك و بين السكوت . . . أذكر أن فى الأقطار العربية فئة كبيرة جدا

لا يسرها صمتك ، وأنها لو قدرت لحالت بينك وبين البحر ، وبالتالى بينك وبين أرض الفرنسيس . . . لا تنس أن تدفع إلينا بين الحين والحين بنتاج تفكيرك ، وخلاصة تأملاتك ؛ فليس بنا صبر على القطيعة ، وما بنا طاقة على الهجران ؛ ولا عاشت مدينة تغريك فينا ، وتصدك عنا . . .

لك ياسيدى أن تمكث فى باريس ما شئت ، حتى إذا ضاق بك الجانب الأيمن فاعبر إلى الضفة اليسرى من السين حيث مونبارناس أو مونمارتر . . . لك كل ما فى الجانبين من جمال ، ولك كل ما فيهما من روعة . . . لك أن تستبدل ما شئت بما شئت ، ولكنى . . . لكنى أستحلفك بالله أن تكتب إلينا « من بعيد » .

[الفلوجة – العراق]

عبد الحميد الألوسى

الصحافة العراقية فى العهد العثمانى

أول ما عرف العراق الصحافة بفضل مدحت باشا . وهو الشخصية اللامعة فى تاريخ الانقلاب الدستورى العثمانى ، الذى يطلق عليه الناهضون فى الشرق اسم أبى الأحرار . فقد عين واليا لولاية بغداد عام ١٨٦٩ وكان عالى الهمة يعتزم القيام بحركة اصلاحية فى هذا القطر البعيد المهمل من بلاد السلطنة ، فاستصحب معه جماعة من رجال العلم والعمل لتشغيل جهاز حكومته الجديدة بينهم مدير مطبعة وصحافى ومهندس طباعة . وبعد أيام من وصوله مدينة السلام أسس فيها مطبعة الولاية ببغداد . وهى أول مطبعة آلية تدخل الحاضرة .

وكان العراقيون فى تلك الأيام لا يقرءون الصحف إلا نادراً ، ولا يصل إلى أيديهم منها الا ما ينشر فى الخارج ولا سيما فى عاصمة الخلافة . ولتفشى الأمية وندرة المتعلمين كانت غالبية القراء من الموظفين ، وهؤلاء يعرفون التركية فى أكثريتهم وقل منهم من يطالع الجرائد والكتب العربية . وقد تعثر على نسخ قليلة جدا من جريدة « الجوائب » العربية لأحمد فارس الشدياق اللبنانى المنشورة فى القسطنطينية بين أهل العلم ورواد الأدب ، لوثوق الصلة فى ذلك العهد

بين بغداد والبصرة والموصل واستانبول، بحيث نجد فى خزائن رجال الجيل الماضى عندنا كثيراً من آثار مطبعة الجوائب العربية فى اللغة والأدب أوفر مما نقع عليه من منتوج المطابع المصرية فى تلك السنين.

أنشأ الوالى المصلح جريدة «الزوراء»[1] فبرز عددها الأول فى ٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٦ هـ (١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٩ م) بثمانى صفحات مكتوبة باللغتين العربية والتركية. وقد كتب فى صدرها: «هذه الغزتة تطبع فى الأسبوع مرة يوم الثلاثاء وهى حاوية لكل نوع من الأخبار والحوادث الداخلية والخارجية». وقد نشرت فى استهلالها «الفرمان العالى لمدحت باشا» بتعيينه والياً لولاية بغداد. وفى هذا العدد خطاب الوالى نفسه الذى ألقاه فى الاحتفال بقراءة الفرمان، وفيه يبسط سياسته ويذكر الأهلين بحالة أوربا وتقدمها وما وصلت إليه بلادنا من التقهقر.

عنيت هذه الجريدة بشؤون الولاية وأحوالها ونشرت أخبار الدواوين، والبراءات السلطانية والقوانين ونصوص المعاهدات والوثائق وأخبار السلطنة والدول الأخرى، وعالجت البحث فى أسباب انحطاط العراق ووسائل ترقيته، وتضمنت رسائل من الأقاليم العراقية، ولم تهمل موضوعات السياسة الدولية وإيراد خلاصات من الصحف العالمية نظير «تايمس» لندن مثلا فى القضايا الراهنة، كما حملت مقالات فى الصحة والتعليم والتنظيم الادارى وبعض قرارات المحاكم فى الآستانة العلية.

والتزمت الجريدة فى ظل مؤسسها الصراحة فى القول وتدوين الوقائع بحرية؛ فلما نقل بعد ولايته ثلاث سنوات فقط كانت حافلة بالأعمال والاصلاح، وعاشت بعده سبعاً وأربعين

---

(١) كان يعرف النصف الغربى من بغداد فى العهد الاسلامى بالزوراء، أى العوجاء. ويعلل بعضهم هذه التسمية بانحراف القبلة فيها عن أية جهة من الجهات الأربع، أو بأن نهر دجلة ينحنى عندها، وكان يسمى النصف الشرقى الروحاء بمعنى أنها ذات سعة وانفراج أو لوقوعها عند منحنى النهر. ويقول المسعودى إن هذين الاسمين كانا شائعين بين الناس فى زمنه. ولكن الجغرافى الفارسى حمد الله فى القرن الثامن الهجرى قال: بينما يسمى العرب بغداد (مدينة السلام) دائما، كان الفرس يفضلون عليه اسم الزوراء، ومع أن هذه التسمية عربية الأصل، إلا أنها ربما قامت مقام اسم فارسى قديم طوى أثره من أمد بعيد.

سنة ، تغيرت لهجتها وأصابها ما أصاب الصحافة العثمانية فى العهد الحميدى من الضغط وخنق الحرية . ومهما كان الأمر فقد حدث فى أعوامها الأربعين الأولى من شؤون البلاد العراقية وأهليها ما لا تعثر على بعضه فى أى مرجع آخر .

بقيت « الزوراء » تحرر باللغتين التركية والعربية . فلما حظيت البلاد بالنهضة الدستورية عام ١٩٠٨ وظهرت فى بغداد جرائد عربية ، طوى قسمها العربى وصارت تنشر باللغة التركية وحدها . فاحتج على ذلك فريق من العراقيين من ذوى النزعة القومية أو ممن لايعرفون التركية ويهمهم الوقوف على مضامين الصحيفة الرسمية من أنباء وبيانات ، فأذعنت الحكومة لطلبهم وعادت تنشر باللغتين عام ١٩١٣ .

أما أسلوبها العربى فقد تعاورته أقلام منوعة فترجج بين الركاكة والبيان بحسب الكتاب الذين يشتغلون فيها ، حتى إن بعض الأدباء العرب فى الأقطار الأخرى نعى على جريدة تنشرها الحكومة فى بغداد مدينة الأدب العربى فى أزهى عصوره وتسمى « الزوراء » ظهورها بهذه الركاكة الفاضحة والأغلاط المزرية . فالتفتت السلطة إلى هذا الانتقاد المصيب فتبين لها أن العلة فى أن يتولى تحريرها العربى بعض موظفى الولاية ممن لا يحسنون اللسان المبين ، فعهدت بانشائها إلى جماعة من رجال العلم والأدب العراقيين ، نذكر منهم أحمد عزت باشا محمود الفاروقى الموصلى وقد حرَّر فيها بضعة أشهر وهو كاتب العربية فى ولاية بغداد فى تلك الأيام ، وتولاها بعده أخوه على رضا ، ومن محرريها عبد الحميد الشادى واحمد الشادى من أعلام الأدب فى القرن الماضى ، ومن أدباء هذا القرن عبد المجيد بك الشادى والأستاذ طه الشواف والأستاذ محمود شكرى الآلوسى صاحب المؤلفات العديدة فى التاريخين العربى والعراق ، وقد كتب فيها فصولاً أدبية كان لها أثرها فى تحريك الجو الأدبى الراكد ، وناقش علماء بغداد على صفحاتها فى مسائل فقهية ولغوية . أما الأستاذ فهمى المدرس الذى نيطت به إدارة مطبعتها فقام بأعباء التحرير فيها باللغتين العربية والتركية وعمره لم يتجاوز ٢١ عاماً .

ويبدو أن جريدة الولاية هذه انحطت فى أسلوبها وكتابتها فى سنواتها الأخيرة ؛ فقد كتب الأب أنستاس مارى الكرملى عنها فى مجلة «المسرة» اللبنانية عام ١٩١١ فى استعراضه

صحافة بغداد يقول : « وأما مواضيع الزوراء فلاتستحق الذكر . وأسفا على ولاية بغداد أن تكون جريدتها الرسمية بهذه الصورة الدنيئة . . . »
وقد غابت « الزوراء » عن الأنظار باحتلال الجيش البريطانى بغداد سنة ١٩١٧ .

بعد خمسة عشر عاما من ظهور جريدة « الزوراء » الرسمية فى بغداد أنشئت جريدة رسمية فى الموصل عام ١٨٨٥ باسم « الموصل » تظهر مرة فى الأسبوع باللغتين التركية والعربية وأحيانا بالتركية فقط ، وتطبع فى مطبعة ولاية الموصل . وهناك مصدر يؤرخ أول صدور جريدة « الموصل » بسنة ١٨٧٩ ، وأثر هذه الصحيفة فى العهد العثمانى غير واضح فى الحياة الفكرية فى بيئتها . ويلوح لنا أنها قصرت مهمتها على نشر القوانين وبيانات الحكومة وإعلاناتها واختتمت حياتها باحتلال القوات البريطانية مدينة الموصل سنة ١٩١٨ .

هذا فى حاضرة الشمال ، أما فى الجنوب فقد أسست أول مطبعة فى البصرة فى ولاية هدايت باشا أسسها محمد على جلبى زاده رئيس كتاب دائرة السنية ، وطبع فيها جريدة « البصرة » التى بدت فى عالم النشر عام ١٨٨٩ وهنا اختلفت « البصرة » عن زميلتها « الزوراء » و « الموصل » إذ أن امتيازها لم يكن للحكومة بل لصاحب المطبعة المذكورة وهو المسئول عن سياستها وإن اتخذت لسانا للولاية ، وكتبت باللغتين العربية والتركية أيضاً واستمرت على هذا المنوال خمسة أعوام . حتى إذا نقل منشئها إلى وظيفة فى بيروت تبنت الحكومة المطبعة ووسعتها ، وعهدت بتحرير الجريدة إلى موظفين فى ديوان الولاية فغدت جريدة رسمية صرفة . لهذا يبدأ البعض تاريخ جريدة « البصرة » الرسمية بكانون الثانى (يناير) سنة ١٨٩٥ وبقيت تنشر أسبوعيا إلى أن احتلت القوات البريطانية الثغر العراقى فى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

ما انبثق نور الدستور فى أفق السلطنة العثمانية عام ١٩٠٨ وأميد صرح الاستبداد ، ورفع الحجر على الآراء حتى انطلقت الأقلام من عقالها ، وخرج المفكرون إلى ساحة الحرية ، وكانت الصحافة من مجالى بروز هذا الانقلاب فى حياة الشعب ، فأقبل الأدباء والمنشئون على إصدار الصحف ؛ ولم يكتفوا بالجرائد اليومية والأسبوعية بل أنشأوا المجلات والنشرات الدورية .

وكان نصيب العراق فى البلاد العثمانية أن سرت إليه هذه الموجة فهب المشتغلون بالسياسة والكتاب إلى إنشاء الصحف والمجلات يكتبونها باللغتين العربية والتركية، حتى بلغت الجرائد فى بغداد وحدها فى خلال سنتين خمساً وعشرين صحيفة، إلا أن صحفنا لم تسلم من الآفات التى بدت أعراضها فى صحافة أرجاء السلطنة جمعاء؛ فان ازديادها الفاحش مع نقص الخبرة والكفاية عند محرريها جعلتهم يشطون فى كتاباتهم ولا سيما فى الجدال السياسى والحزبى، فظهرت على صفحاتها مهاترات شخصية يندى لها الجبين مما سلم سلاحاً للرجعيين يشهرونه فى وجه أنصار الحرية الصحافية، فأحدثت النكسة رد فعل كان له صداه فى مجلس المبعوثان فى الآستانة.

ومن الناحية المادية لم يستطع منشئو الصحف العراقية أن ينهضوا بها على أساس مشروعات اقتصادية كما يفعل أصحاب الصحف فى أوربا وأمريكا وبعض أقطار الشرق الآن. لهذا أخفق القسم الأعظم منها ولم يقو على الحياة ففارق الوجود من أول الشوط أو بعد خطوات قصيرة.

وقد أصيبت صحافتنا فى مطلع حياتها بالأمراض الوبيلة التى تصاب بها الصحف فى العالم، إلا أن هاتيك الصحف عند الأقوام تكون أقلية لا يؤبه بها بجانب الأكثرية التى يستقيم سلوكها، فتتفوق الصحف المحترمة على صحف المرتزقة التى تعيش عيشة طفيلية. لهذا قلما تجد جريدة عراقية علت بها السن يرجع ميلادها إلى أول العهد بتاريخ الصحافة فى بلاد الرافدين، كما أن هذه الصحف فى العهد العثمانى أنشأتها ظروف وأوضاع وأغراض خاصة فذهبت بذهابها وقضى عليها فور تغير الوضع فضلا عن قلة الصحافيين والمنشئين الذين احتبسوا حياتهم لهذا العمل والكتابة، لانخفاض المستوى الثقافى العام وشيوع الأمية فى القطر.

إن أول جريدة أهلية عرفتها مدينة الخلفاء هى «بغداد» أنشأها فرع حزب الاتحاد والترقى فى الحاضرة، وعهد بادارة سياستها إلى مراد بك سليمان أحد رجال الحزب، ظهرت ثلاث مرات فى الأسبوع باللغتين العربية والتركية ورأس تحرير قسمها العربى الأستاذ معروف الرصافى الشاعر الشهير، وكتب فيها أعلام الأدباء والكاتبين كجميل الزهاوى وفهمى المدرس ويوسف غنيمة. والمتتبع لهذه الجريدة الأولى فى صحافة البلد إذ صدرت فى ٦ آب (أغسطس) سنة ١٩٠٨ (ولم يكن قبلها إلا الجريدة

الرسمية) وقد كتب فى ديباجتها أنها « جريدة سياسية علمية أدبية أسبوعية واسطة لنشر أفكار جمعية الاتحاد والترقى » يجدها من أقوى الصحف العراقية اندفاعاً فى تأييد الانقلاب الدستورى ، عنيت بالفكرة والاسلوب مما أحلها منزلة علية عند القراء . أما من حيث البيان العربى ، فبعد أن تركها الأستاذ الرصافى ضعف أسلوبها وساءت لغتها . ومع أنها كانت بكر الجرائد فى يومها ، فقد ضربت الرقم القياسى فى سعة الذيوع ولا سيما فى الحوادث الجلى ، فبلغت النسخ التى طبعتها ووزعتها من العدد الذى وصفت فيه حادثة ٣١ آذار (مارس) الشهيرة فى استانبول التى قضت على الحكم المطلق ، وقوضت عرش الطاغية ، ثلاثة آلاف نسخة ، فى حين لم تكن فى تلك الأيام تنشر أروج جريدة أكثر من ألف نسخة فى اليوم . ولم تعمر صحيفة « بغداد » إذ قرر الحزب وقفها فى سنتها الثانية .

وازدادت الصحف العراقية حتى وصلت إلى تسع وستين جريدة وعشرين مجلة بين أسبوعية وشهرية، وليس بينها يومية غير بغداد فى بعض الأشهر و « الزهور » و « صدى الاسلام » فى أخريات سنوات الحرب العظمى . والبعثة تظهر مرة أو مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع .

ويظهر أن الحكومة العثمانية بعد أن طغى سيل الصحف فى مجتمعها ورأت اضطراب أكثرها من الناحيتين المادية والأدبية وضاقت ذرعاً بالصحافيين الأحرار ذوى الجرأة ، عمدت إلى طريقة لتصفية صحف بغداد والقضاء عليها ، فصدر أمر وزارة الداخلية فى الآستانة سنة ١٩١١ « بأن الجرائد التى حصل على استيازها ولم تنشر حتى ٥ آذار (مارس) من تلك السنة أو نشرت بضعة أعداد منها ثم احتجبت إلى هذا التاريخ تلغى امتيازاتها » . وهكذا قضى وزير الداخلية بجرة قلم على ثمان وثلاثين جريدة بغدادية فلم يبق فى مدينة السلام مع « الزوراء » الرسمية غير خمس جرائد ومجلتين .

لم تكن لغة صحافة العراق فى ذلك الطور العربية وحدها بل كانت معظم الجرائد تنشر باللغتين العربية والتركية ، وبعضها تركية صرفة ، وبينها صحف باللغة الفارسية . وعربية صحفنا فى أول نشأتها كانت مشوبة بالعجمة ، وأسلوب الكتابة ركيك وجملها مهلهلة وتعابيرها مشحونة بالاغلاط فى اللغة والنحو بحيث قال لغوى عراقى كبير محنقاً : « إن لغة جرائدنا هذه خليط

من جميع اللغات التى لها متكلمون فى البلد ، فترى فيها التركية والكردية والفرنسية والانكليزية والهندية والفارسية ولغة مؤلفة حروف ألفاظها من كل هذه اللغات معاً أو من بعض منها . »

هذا من حيث اللغة والبيان ، أما من حيث الموضوعات فبديهى أن شيوع الأمية فى القطر يومئذ شيوعاً رائعاً والتأخر العلمى والأدبى جعل وجود الصحافيين والكتاب والباحثين بين ظهرانينا نادراً ، وبخاصة متى علمنا أن الصحافة صناعة لا يخوض غمارها بجدارة إلا من يملك موهبة الكتابة ويعرف أسرار الفن الصحفى . ولم يكن يقدم على الكتابة فى الجرائد فى تلك الفترة حملة العلم الدينى وأشياخ التدريس والفقهاء . وهناك ملاحظة جديرة بالتدبر وهى أن العراق قد احتفظ فى أظلم عصور التقهقر بجوهر اللغة ، فى الشعر أما الكتابة فهى فيه متكلفة مصطنعة ، وهذا النثر أدب محنط لا يصلح للمصاولة فى ميدان الصحف . من أجل ذلك قل أن وجد فى الخطة العراقية فى مطلع النهضة الصحافية كتاب عصريون ذوو أسلوب سائغ محبب للقراء . وإلى وقت قريب بين الحربين العالميتين لم تذع صناعة الكتابة الصحافية الذيوع الذى تفتقر إليه البلاد . وهذا القحط يدفع بالراغبين فى المطالعة إلى تطلب ما تنتجه مطابع الأقطار الأخرى ، وكانت فى ظل الدولة العثمانية استانبول ومصر والشام .

وقد وجد الفاقهون العراقيون ورجال السياسة فى الصحافة معوانا لهم على الدعاية لآرائهم وخططهم السياسية ، فكانت صحفهم تؤيد السلطة أو تقارعها وتتحزب لهذا الحزب أو خصيمه . ولكن الظاهرة التى تلفت نظر المتفحص أن أغلب صحف العراق فى ذلك الحين كانت معارضة للحزب الحاكم فى الامبراطورية العثمانية ، ولم يقف بجانب الحزب الاتحادى غير جريدتين ، أما بقية الصحف فى بغداد والبصرة فكانت تروج لحزب الحرية والائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقى أو أن تعبر هذه الصحف عن انتقاض الشعب تحت نير الغريب ومحاولته الافلات منه ، وبينها جرائد دعت للفكرة القومية ومهدت للنهضة العربية .

ويسجل التاريخ للصحافة العراقية مواقف مشهودة فى التململ من الحكم التركى ، كما أن الصراع كان عنيفاً بين بعض الصحافيين والوالى الذى يتمتع

بسلطات واسعة. ومرجع الشكوى وزارة الداخلية فى القسطنطينية. وقد انتصر فى بعض الحادثات الصحافى على الوالى الذى كثيراً ما تذرع بحكم دكتاتورى مخيف، كما أن روح التمرد على الظلم، ومحاسبة المسئولين برز فى صحفنا بما كان يقوم بين الوالى وبعض وجوه البلد من توتر وكفاح، ويظهر أثر الصحافيين فى الانتصار لهذا الجانب أو ذاك ولاسيما فى موسم الانتخابات لمجلس المبعوثان أو المجالس الادارية المحلية. ولعل صحف الفكاهة والهزل على قلتها قد قامت بدور أعمق تأثيراً فى هذا المضمار.

وإذا كانت صحافة العراق قبل أربعة عقود من السنين وفى أول نشأتها لم ترتفع إلى درجة علية من حيث الفن والأسلوب والمظهر والاخراج، فلا يعنى هذا أن الروح العراقى الصلب والسجية الحرة التى فطر عليها أبناء الرافدين لم يكونا يغمران أكثرية تلك الصحف التى يعدّ عملها عمل الروّاد فى طريق الاحياء القومى الوعرة. فقد عرفت بغداد والبصرة والموصل صحفاً فى ظل حكم الغريب وتحكمه، ترفع صوتها بمطالب الأمة وتعبر عن احساس الجمهور العربى وتمثل نزعة التحرر والاصلاح.

فجريدة «الرقيب» لمنشئها الحاج عبد اللطيف ثنيان برزت فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٠٩ فكانت ثالثة جريدة أهلية فى هذه الديار. وقد كتب على صدرها أنها جريدة عربية تركية خادمة لترقى الوطن بكمال الحرية. صدرت مرة فى الأسبوع أولاً ثم صارت تظهر مرتين كل أسبوع وقسمها التركى ضئيل. وتميزت بأسلوبها الكتابى السهل وسلاسة عبارتها ونقاء لغتها بالنسبة إلى رصيفاتها. وهى أجرأ صحف وقتها وأكثرها شعوراً بالواجب. تيقظ صاحبها لتتبع سير الحكومة وأعمالها، فما رآه حسنا أطراه، وما وجده خطأ انتقده، فاستطاع بذلك أن ينفذ خطة جريدته التى أعلنها فى قوله: «جعلنا خطة الرقيب حرة إلى آخر درجة، تذكر المسئ وتقبح فعله مهما كان شريفاً عالماً فاضلا غنيا، وتذكر المحسن وتقدر إحسانه مهما كان خاملا فقيرا بلا فرق بينهما؛ إذ بدون ذلك تذهب مزية المحسن ضحية عدم شهرته وغناه، وذلك مما يخالف العقل لأن الحسنة حسنة، وان كانت من بيت الاحسان فهى أحسن، والسيئة سيئة وان كانت من بيت الشرف فهى أسوأ.»

عاشت هذه الجريدة ما يزيد على السنتين، ولم تقصر همها على السياسة

بل جالت فى ميدان الاجتماع جولات وعالجت مشكلة التربية والتعليم وحثت على ترقية الأفكار ، وتناولت مسائل لغوية طريفة من لغة العوام فى العراق ، ولصاحبها مؤلف مخطوط فى هذا الموضوع .

وعنى عبد اللطيف ثنيان فوق جرأته السياسية بتقصى أحوال القطر العراقى ، فتراه ينشر على الدوام رسائل من الألوية يعالج فيها شؤون كل لواء وفق حاجته ، ويذيع شكاوى الناس ، حتى إننى عثرت فيها على مطالبته بدفع رواتب متراكمة لمنضد حروف فى مطبعة الولاية ، بمعنى أنه قام بخدمة الأغراض النقابية قبل أن توجد نقابة عمال المطابع فى عهدنا الحاضر . وفى هذا إشارة إلى اهتمامه بالأمور الشعبية ؛ لذلك أقبل الجمهور على جريدته إقبالا كبيراً حمده وقدره فى مفتتح سنته الثانية وجعل هذا من عوامل مثابرة الجريدة على الصدور ، على حين لم يحل الحول على زميلاتها البغداديات باستثناء واحدة منها .

وأكثر ما كانت تلهج به جريدة « الرقيب » النظام الدستورى فى الحكم ، فتطالب الحاكمين بتنفيذ أحكام الدستور . ولابدع فى ذلك لقرب عهد الناس بنشر الدستور وزوال دولة الاستبداد . ولم يسلم منشئ «الرقيب» من اضطهاد السلطة وملاحقتها ، فحصلت بينه وبين الوالى مشادة انجرت إلى سوح القضاء ، واتخذ خصومه هذا للتشنيع عليه بأسلوب تنكره الأخلاق والفضيلة ، فلم يثنه ما لاقاه عن خطته فى النقد الصريح .

وظهرت جريدة « بين النهرين » فى ٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٠٩ باللغتين العربية والتركية ، وكانت فى أول عهدها للتاجر يعقوب أفندى العانى أخبارية بحت لا تهدف إلى غرض سياسى . ثم تسلمها محمود بك الطبقجلى وصار يحرر فيها القسم التركى بلهجة عنيفة ، ويحرر قسمها العربى كامل بك الطبقجلى ، وهو تاجر مفكر عشق الكتابة وعلق بالنظم وهوى الصحافة ، وكان قلمه خذما . وفى هذه الصحيفة بدأ الكاتب البليغ الأستاذ ابراهيم صالح شكر وخزاته الدامية . فلما نشط مديرها للعمل السياسى الجدى وأنشأ فرعاً لحزب الحرية والائتلاف المعارض فى بغداد أصبحت « بين النهرين » لسان هذا الحزب ، فزاد انتشارها ، وأخذت تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع بعد أن كانت جريدة أسبوعية . وقد وقفت بجانب الوالى الشهير الفريق ناظم

باشا ، فلما عزل من ولاية بغداد ورجع إلى الآستانة حيث اغتيل بيد خصومه السياسيين ، اندفعت الصحيفة فى ميدان المعارضة للحزب المسيطر ، وقاومت الوالى الجديد جمال باشا ، مقاومة لا هوادة فيها .

و « بين النهرين » أول جريدة عراقية انتصرت للفكرة العربية ونبهت إلى الخطر الذى يهدد السلطنة باعتناق بعض أقطاب الاتحاديين « النزعة الطورانية » . وكان منشئ الجريدة قد تلقى من الشهيد شكرى بك العسلى نائب دمشق فى مجلس المبعوثان فى دار الخلافة وصاحب الخطب الرنانة فيه ، كتابا يعلمه بما تبيت الحكومة المركزية فى استانبول من التفريق بين عنصرى الدولة الترك والعرب بحيث وضعت علامة على اسم كل موظف أو ضابط عربى فى الحكومة ، لتقف دون تسنمهم مراقى المناصب . كما أثرت فيه لهجة جريدة « الحضارة » التى كان يذيعها فى قومه من فروق الشهيد الأستاذ عبد الحميد الزهراوى ، فطفق الطبقجلى يفضح فى صحيفته الخطط الملتوية منبها الغافلين من بنى أمته . وقد قست كتاباته مما حمل السلطة على سوقه إلى ساحة القضاء فحكمت عليه المحكمة بالسجن ، وقد كان متغيباً فى البصرة . عاشت « بين النهرين » ثلاث سنوات ، حتى إذا جنح حزب الوالى إلى طرق غير قانونية فى كفاح خصومهم وعمدوا إلى أساليب مروعة تنتهى بالاغتيال ترك الميدان الصحفى ، وكتب فى العدد الأخير كلمة مؤثرة قال فيها : « أما والحياة مهددة فلأختمن حياة الصحافة والنشر قبل أن تختم حياتى » ، وسافر خلسة من بلده بغداد إلى البصرة حيث كانت ملجأ الأحرار والمعارضين للحكومة فى حمى عميد حزب اللامركزية السيد طالب باشا النقيب . وقد عضد هذا الزعيم فى تلك الأيام الحركات السياسية والمشروعات الصحفية وعاون الأحرار بنفوذه والمال الذى بين يديه .

وهناك جريدة ذات لون خاص فى صحف العراق بل فى الصحف العربية قاطبة فى ذلك الطور ، فقد وجد فى الوزراء وجيه نجدى كبير هو الشيخ جار الله الدخيل من أهل القصيم ينتمى إلى عشيرة العكيل ، وبيت الدخيل من البيوتات الرفيعة فى نجد إلى اليوم ، وكان جار الله وكيلا للامير ابن الرشيد فى هذا الاقليم ، له تجارة واسعة ويهيمن على طريق البادية وقوافلها ، ويأمرته أهناد الابل يتعاطى المتاجرة بها ويستخدمها فى

المواصلات يوم لم تكن فى البلاد سيارات ولا قطارات . ولهذا الزعيم النجدى مضيف فسيح الجوانب فى بغداد ، يعج برواده من بدو وحضر . فأراد أن يصدر جريدة تعضد نفوذه وتوسع آفاقه وتخدم تلك الأصقاع المجهولة فى عالم النشر من مواطن عشيرته . فأسس صحيفة « الرياض » متخذاً لها اسم قاعدة نجد . وكان له ابن أخ ، شاب نابه ، يتصل بالطبقة المثقفة من البغداديين ممن يهوون السياسة ويمارسون صناعة القلم هو الأستاذ سليمان الدخيل ، فعهد عمه إليه بتحرير جريدته ، واستعان الصحافى الدخيل بطالب نجيب فى المدرسة الاعدادية شدا الكتابة ودرج على أن يترك مقاعد مدرسته ويختلف إلى مكاتب الصحف هو ابراهيم حلمى العمر .

ظهرت « الرياض » فى ٧ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٠ أسبوعية عربية اللهجة أدبية المشرب وإن لم تكن قويمة اللسان أو مشرقة البيان إلا أن الصفة التى امتازت بها العناية الفائقة بأخبار نجد وشبه جزيرة العرب والامارات العربية المصاقبة للعراق . وطبيعى أن تشغل شؤون إمارة ابن الرشيد كثيراً من أعمدتها .

ويجب أن نعترف فى تحليل تسرُّب الفكرة العربية إلى الأذهان فى حكم الأغراب الذين لم يكونوا يرضون لهذه النزعة انتشاراً بأن « الرياض » قد خدمت القضية العربية بما أحدثت من كثرة الضجيج والكتابة عن قلب الجزيرة وينبوع العربية ، فأذاعت الحديث عن العرب وقبائلهم وأفخاذهم ومنازلهم ومنازعاتهم وغزواتهم وحربهم وسلمهم بنطاق واسع أثر فى الأفكار ولفتها إلى هذه الرقعة من الشرق المتململ للنهوض . وليس عليك بعد ذلك أن تدقق أو تلحف فى تمحيص ما ترويه « الرياض » من جوانب الامارات العربية والسلطنات وزعامات البوادى ومناحراتها ، فالمبالغة بادية عليها . ولكن هذا لا يهم الكاتب أو الناشر ، ما دامت معظم رواياتها وتلفيقاتها تحتل مكاناً بارزاً فى عالم المطبوعات ، وتتناقله صحف العراق والشام ومصر وتتخاطفه أقلام مراسلى الصحف الأجنبية . فكم شغلت بعض رواياتها هذه أسلاك البرق ودواوين الدولة العثمانية أسابيع بل أشهراً . وقد يكون الحادث فى أساسه من ابتداع ذهن مدير الجريدة أو محررها . وقد روى لى أستاذ عراقى فى الشعر والصحافة أن المستشرقة الانكليزية الشهيرة المس جرترود بيل سألت يوماً الأستاذ

سلمان الدخيل وهى فى مكتبها الرسمى فى دار الحاكم الملكى البريطانى العام فى بغداد — بعد الاحتلال البريطانى — كم تقدر عدد نفوس نجد ؟ فأجابها فوراً: ثلاثين مليوناً . وعبثاً حاولت أن تستفهم منه هل كان قد وهم بصفر فى الرقم وهو يريد ثلاثة ملايين ؟ ولكنه أصر على تقديره . ولما كانت «الخاتون» —كما يسميها أهل العراق — رحالة خبيرة ببلاد العرب ، فياشد ما هالها وهم الأستاذ !

ولم يقف الأستاذ الدخيل عند حد الصحافة السياسية والجريدة الأسبوعية بل أصدر مجلة شهرية عنوانها «الحياة» يحررها الكاتب الفنى ابراهيم حلمى العمر محرر « الرياض »! وتوسع فى عمله فأسس دار نشر تطبع الكتب ، جعلت باكورة انتاجها كتاب « عنوان المجد فى تاريخ نجد » لعثمان بن عبد الله بن بشر ، وقد صححه محمد بن عبد العزيز ابن مانع النجدى ومدير « الرياض ». ومن طريف حوادث دار النشر هذه أنها طبعت فى بغداد كتاباً فى « حساب الجفر » نسبته إلى ابن العربى الفيلسوف الشهير فتلقفته الأيدى وراج رواجاً هائلا وربح الناشر منه مالا وفيراً . وحقيقة الكتاب من قلم تحرير الرياض انتجته قريحة سلمان وابراهيم أو أحدهما.

وتولى الأستاذ الحاج عبد الحسين الأزرى إصدار جريدة أدبية فى بغداد اسمها « الروضة » وأعقبها بجريدة « مصباح الشرق »سياسية ، حتى إذا عطلتها الحكومة نشرها باسم « المصباح » وخلفتها « المصباح الأغر » بعد التعطيل . وقد كانت مصباحاً منيراً للفكرة العربية حمله هذا الكاتب الشاعر لينير بصائر بنى جلدته وقارع الحكومة فى حيادها عن جادة الصواب ، وهى جريدة أسبوعية باللسان العربى دون التركى برزت فى غرة آب (أغسطس) سنة ١٩١٠ واشتدت فى انتقاد السلطة فتربصت بصاحبها ، حتى إذا سبق غيره من الصحافيين فى إذاعة مصرع فريد بك والى البصرة — فى الصراع بين الحكومة والزعيم طالب باشا النقيب — ساقت الحكومة الأستاذ الأزرى إلى المحكمة فحكمت عليه بغرامة . وظلت الجريدة تصدر إلى أن اعتقل منشئها فى الحرب العالمية الأولى وصودرت مطبعته .

وساهمت البصرة فى الجهاد الصحفى ، فمن أوائل الجرائد الحرة فيها جريدة « الايقاظ » التى أنشأها الأستاذ سليمان فيضى المحامى ، فى ٢ أيار (مايو) سنة ١٩٠٩ ولم تعمر طويلا . ومما أوثر عنها دفاعها المجيد فى

وجوب استعمال اللغة العربية فى دواوين الدولة والمحاكم والمدارس إذ كانت اللغة التركية هى السائدة .

أما الصحيفة الجليلة الخطر فى الفيحاء فهى « الدستور » التى أسسها عبد الله بك الزهير فى ٢٢ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٢ فلما انتخب صاحبها عضواً فى مجلس المبعوثان انتقل امتيازها إلى الأستاذ عبد الوهاب الطباطباى فنفخ فيها حياة جديدة ، وتضافر على التحرير بها نخبة أدباء الثغر وسياسيه منهم أخوا صاحبها عبد المحسن وعبد العزيز وإسماعيل السامرى ، وكانت لسان فرع حزب الحرية والائتلاف فى البصرة . وقد اشترى لها الحزب مطبعة من أوربا مما لم يفعله حزب آخر فى العراق . وأصبحت دار الدستور ندوة الكتاب والمفكرين والسياسيين سواء منهم البصريون والهاربون من بغداد فراراً من إرهاق الحكومة . وتجد من أعضاء أسرة الدستور فى الدولة العراقية فى عهد الاستقلال وزراء ومتصرفين ومديرين عامين ورؤساء دواوين . ولما عطلت الحكومة الدستور صدرت باسم « صدى الدستور » وواصلت خدمة النهضة الفكرية والقضية القومية .

واشتدت الحركة الفكرية عند أهل بغداد والبصرة ولا سيما بعد أن انعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس وكثرت الجمعيات السياسية السرية والعلنية فى أنحاء السلطنة وقوى ساعد المطالبين باللامركزية ، وتجلت شخصية الأمة العربية وتعزز كيانها . فنهض فريق من الشباب القومى فأسسوا فى بغداد النادى العلمى الوطنى لبث تعاليم البعث القومى . ومن أنشط العاملين فيه مزاحم بك الباجهجى الذى قام بتأسيس جريدة « النهضة » فاذا هى الصحيفة العربية الجهيرة الصوت البليغة الأسلوب المتفوقة فى هذا المجال . طلعت على القراء فى ٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٣ مطالبة الحكومة التركية بحقوق العرب بلهجة حادة ، وشددت النكير على الحزب المهيمن يحررها ابراهيم حلمى العمر (محرر جريدة « الرياض » سابقاً) وفيها تجلت صفات هذا الكاتب فطارت شهرته . فلم تتحمل الحكومة سطورها النارية فعطلتها بعد عددها (الحادى عشر) وتعقبت مدير سياستها ومحررها فهرب الباجه جى بك إلى البصرة ومعه المحرر ، ويسجل مؤرخو « الثورة العربية الكبرى » لجريدة «النهضة» البغدادية

موقفها التاريخي فى مناصرة مشروع التحرير العربي .

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى دفاع المفكرين العراقيين عن الحرية الصحافية ؛ فقد أرادت الحكومة أن تضيق الخناق على الصحافة فجاءت مجلس المبعوثان بذيل لقانون أصول المحاكمات الجزائية تريد به أن تقيد الأقلام وترهب الصحافيين ، فاندفع النواب العرب للحملة على هذه اللائحة ودافعوا عن حرية الرأى والكتابة والنشر ، بينهم من العراق الأستاذ جميل صدقى الزهاوى الشاعر الفيلسوف نائب بغداد والأستاذ سليمان فيضى نائب البصرة . ومما قاله سليمان فيضى فى خطابه فى هذا الصدد :

« تريد الحكومة أن تعامل أبناء الأمة الذين استنارت أذهانهم بالعلم والمعرفة بما تعامل به المجرمين والقتلة. إننا نقتل أذكى كتابنا ونخرس الأقلام ونسلب الناس حرية الكلام ثم ندعى أننا نعيش فى بلاد دستورية حرة ! فما هذا المنطق ؟ لماذا تشدد الحكومة هذا التشديد على أرباب الأقلام والمنورين منا ؟ فاذا كانت الحكومة تريد بسن هذا القانون اتقاء القدح والذم فى الصحف ، فلماذا ترجح حقوق هؤلاء الناس على حقوق الآخرين ؟ لتوضح لنا الأسباب التى حملتها على تقييد حرية الصحافة تقييداً لا ينطبق على القواعد الدستورية . »

وقد علقت جريدة « الاقدام » المصرية التى يحررها ولى الدين بك يكن — الكاتب الشاعر الخالد — على هذه الضجة فى البرلمان العثمانى انتصارا لحرية الصحافة ، فقالت :

« إننا نعجب كل الاعجاب بالنفر القليل من نوابنا العرب مثل سليمان فيضى « البصرة » وجميل الزهاوى (بغداد) وفارس الخورى (الشام) فهؤلاء أدوا الأمانة حقها ، فدافعوا عن حرية الصحافة دفاع الأبطال الشجعان فبرهنوا أولا على إخلاصهم لوطنهم ، وثانيا على كبر نفوسهم فلم يكونوا عبيدا للمطامع والشهوات ، وثالثا على أنهم من العلماء المنورين فشكراً لهم وألف شكر على شجاعتهم الأدبية وغيرتهم الوطنية . »

وليس أدل على ما عاناه الصحافيون العراقيون من عنت السلطة وعسفها من استعراض بعض الأحداث التى أصيبوا بها قبل نشوب الحرب العظمى الأولى عام ١٩١٤ وفى أثنائها ؛ فقد عدلت الحكومة العثمانية المادة ٢٣ من (قانون المطبوعات) فتعرض أصحاب الصحف والكتاب للمحاكمة

والسجن ودفع الغرامات المالية ، ولم ينج بعضهم من الاهانة والتنكيل ، فعطل الوالى جمال باشا جريدة الرصافة لصاحبها الأستاذ صادق الاعرجى تعطيلا إداريا فاحتكم الصحافى إلى القضاء وأصدر بمكان صحيفته المعطلة جريدة الصاعقة التى استعارها من صديقه الأستاذ عبد الكريم الشيخلى ، فلم يرتو حقد الوالى فاستعان ببعض السوقة فتحرشوا بناشر الجريدة ظلما وعدوانا وافتروا عليه بالكذب فى شكواهم إياه للمحكمة ، فلم يسع المحكمة إلا أن تعتقل الصحافى على ذمة التحقيق ، ولكن الرأى العام الواعى أحس بوقع سياط الظلم على الكاتب الجرىء ، فتجمهر خلق كثير فى سراى الحكومة احتجاجا على هذا التصرف ، وشجع شغب الجمهور الوجيه عيسى بك الجميل الذى يتمتع بزعامة شعبية مرموقة ، فأبرق بعرائض الشكوى المريرة إلى الآستانة ، فأوعزت وزارة الداخلية من هناك بالافراج عن الصحفى المضطهد . فلم يسع الوالى إلا أن يواجه صاحب « الرصافة » فوجده صلب العدد حاد اللسان .

ولم يكن الوالى الظالم يتورع من أن يضرب الصحافى بعصاه كما حدث لابراهيم حلمى العمر عند ما نشر فى جريدة مصرية مقالا حمل فيه على حكومة الاتحاديين عند اعلان الحرب فما كان من الوالى جاويد بك — وهو يشغل مركز قائد الجيش أيضا — إلا أن أصدر أمره بحبس الكاتب ، ثم استدعاه من محبسه فصار يضربه ضربا مبرحا فى بهو استقباله وعلى مرأى ومسمع من ضيوفه ولم ينجه من يديه إلا شفاعة زميل ترك الصحافة وأصبح عضوا فى مجلس الولاية .

كانت البصرة معقل الأحرار فى ظل الزعيم طالب باشا كما ألمعت آنفا ، وهذاما أغرى الصحف البصرية بالامعان فى حملاتها على الحكومة وحزبها مما أحنق الحكومة المركزية فصدرت أوامر وزارة الداخلية فى استانبول فى أواخر عام ١٩١٣ إلى والى البصرة باقفال جميع الجرائد التى تصدر فى الحاضرة والامساك عن منح امتياز جديد بصحيفة ، ولم تبق من الجرائد إلا واحدة بنفوذ الزعيم المذكور .

ولما دارت رحى الحرب الكبرى اعتصم فى البصرة بعض من ذكرت من السياسيين والصحافيين وبخاصة بعد أن احتلتها القوات الانكليزية

ثم تسرب إليها بعد ذلك رشيد الهاشمي الشاعر الكاتب والشيخ كاظم الدجيلي مدير مجلة « لغة العرب » .

أما في بغداد فقد اتخذت السلطة من ظروف الحرب الاستثنائية ذريعة للقضاء على الصحافة الحرة واضطهاد الصحافيين فغابت معظم الصحف عن الأنظار ولم تبق إلا جريدة « الزهور » لصاحبها الأستاذ رشيد الصفار لأنها موالية للوضع القائم ، وهو الوحيد الذي ثبت على سياسة واحدة ، حتى إذا جلا العثمانيون عن بغداد التحق بالجيش المنسحب إلى الموصل واستأنف عمله الصحفي فيها فأصدر جريدة « دعوة الحق » . فلما عاد إلى وطنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها أسس له مطبعة ولم يشتغل بالصحافة ، وكانت سلطة الاحتلال البريطانية قد صادرت مطبعته لتطبع فيها جريدتها التي أنشأتها باسم « العرب » في بغداد .

ونهض الحزب الحاكم في غمرة الحرب للاستعانة بالصحافة في بث دعوته فأصدر جريدة « صدى الاسلام » باللغتين العربية والتركية أشرف على سياستها قيادة الجيش برآسة القائد نور الدين بك وهو المعروف بعد ذلك بالجنرال نور الدين باشا فاتح أزمير ، ويتولى إدارتها الأستاذ رءوف بك الجادرجي . وعظم اهتمام حزب الاتحاد الشرقي بهذه الجريدة فاختير لها أكابر الكتاب في اللغتين ، فكتب فيها بالتركية حكمت ثريا بك كما كتب فيها بالعربية محمود بك الدادي والأستاذ عطا الخطيب والأستاذ ابراهيم حلمي العمر والأستاذ خيري الهنداوي والشاعر عبد الرحمن البناء والأستاذ علي الشرقي من النجف رامزا إلى اسمه بالحرفين ع . ش وكان هم الصحيفة نشر الدعاية للحكومة الاتحادية وسياستها وتفنيد بعض كتابات جريدة « الأوقات البصرية » التي أنشأها الجيش البريطاني المحتل في البصرة .

ولم تكتف الحكومة باضمحلال الصحف العراقية ، بل عمدت إلى الانتقام من الصحفيين المعارضين ، وممن يحملون الفكرة العربية الاستقلالية ، فنفت كلاً من الحاج عبد الحسين الأزري صاحب « المصباح » ، والأستاذ داود صليوا صاحب « صدى بابل » ، والأب أنستاس ماري الكرملي منشئ « لغة العرب » إلى قيسري من البلاد التركية حيث قاسى هؤلاء الأمرين مايزيد على سنة ونصف سنة . كما نفت الأستاذين ابراهيم صالح شكر منشئ مجلة « الرياحين » ، وعبد اللطيف ثنيان

صاحب « الرقيب » إلى الموصل ، وفر إلى نجد الأستاذ سليمان الدخيل صاحب « الرياض » .

ولم تكتف بهذا بل ساقت إلى ديوان المحكمة العرفية فى عالية (لبنان) الأستاذ أحمد عزة الأعظمى المفكر العراقى المجاهد الذى كان ينشر فى استانبول مجلة « لسان العرب » حيث سجن ثلاثة أشهر تجرع فيها العذاب ، ولم تسفر محاكمته عن إدانته . وصادرت الحكومة فى الموصل حرية خير الدين بك العمرى عقاباً له على ما كان ينشره فى جريدة « النجاح » من نقد ومعارضة للحكومة .

هذه لمحة عن حال الصحافة العراقية فى العهد العثمانى . وإذا تركنا النزعة السياسية جانبا ، ودرسنا أحوال هذه الصحف من حيث مادتها وفنها فى ذلك العهد ، لا نلقى لها شخصية واضحة فى عالم الأدب والثقافة ؛ إذ معظمها لم يكد ينشر إلا التافه من الكتابة . أما فى الميدان الاجتماعى فقلما ناصرت الفكرة الحرة الجديدة . ويكفى أن أشير إلى حملة بعضها على الأستاذ جميل الزهاوى لآرائه فى « تحرير المرأة » التى نشرتها له جريدة « المؤيد » فى مصر بحيث هب كبار المفكرين المصريين للدفاع عنه وفى طليعتهم الدكتور شبلى شميل وولى الدين بك يكن .

كما كانت هاتيك الصحف قليلة الرواج ، متخلفة من ناحية الاخراج والأسلوب الفنى ، صغيرة الحجم ، رديئة الطبع فى الغالب ، لا تتجاوز أربع صفحات صغيرة أو صفحتين اثنتين . وتلك حال اضطرارية عهدئذ لقلة الوسائل ونقص المواصلات وفقدانها وتأخر الطباعة . وقد نبه الى هذا الطور البدائى فى الصحافة العراقية بعض من أخذوا فى تدوين تاريخ الصحافة العربية قبل أربعين سنة . ثم تطورت الصحافة العراقية بعد الحرب العالمية الأولى تطوراً يبعث على الاستحسان والتقدير .

رفائيل بطى

شهريات

شهرية السياسة الدولية

عمر ميدان السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى بالحوادث الجديرة بالتسجيل . فقد كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة منعقدة طواله ، وكان جدول أعمالها مليئا بالبنود المتصلة بمواضيع على جانب من الخطورة . وقد انعقدت خلاله كذلك جلسات لمجلس الأمن ، كما بدأت فيه لجنة المستعمرات الايتالية السابقة تحرياتها استعدادا لوضع تقريرها ، وحدد موعد لانعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة الذى يرى الناقدون أنه منطو على غير قليل من المواقف الدولية الحاسمة .

حق الاعتراض

أما فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فقد احتل حق الاعتراض مكانا من مداولاتها ممتازا . وقد أثار مناقشته اقتراح من جانب الولايات المتحدة بخلق هيئة جديدة تضاف إلى هيئات الأمم المتحدة وتكون مؤلفة من ممثل لكل دولة من دولها الأعضاء ويكون لها اختصاص النظر فى الشؤون التى لا تتصل اتصالا مباشرا بالسلم العالمى والأمن الدولى فلا تتعارض من ناحية مع اختصاصات مجلس الامن المقررة فى أحكام ميثاق « الأمم المتحدة » ، وتتحرر قراراتها من ناحية ثانية من حق الاعتراض الذى اتهم الاتحاد السوفيتى باساءة استعماله اذ لجأ إليه مندوبه أكثر من ثمانى عشرة مرة .

وكان الدافع المباشر إلى تقدم الولايات المتحدة بهذا الاقتراح هو موقف الاتحاد السوفيتى من رغبة الدولة الاميريكية الكبرى فى إصدار مجلس الأمن قرار اتهام بلغاريا ويوجوسلافيا وألبانيا بمساعدة الثائرين من اليونان على حكومة أثينا وعهدها الحاضر ؛ فقد عطل باستعماله حق الرفض المضى فى سبيل

تحقيق تلك الرغبة تعطيلا .

وقد انتهت الجمعية العامة فى الأمم المتحدة بالموافقة على الاقتراح بتأليف ما سمى « بالجمعية العامة الصغرى » بكثرة من الأصوات عارضتها الكتلة السلافية معلنة أن أعضاءها لن يساهموا فى أعمال تلك الجمعية الصغرى التى يعتبرون قيامها مخالفا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة إذ يعتدى اختصاصها على اختصاصات مجلس الأمن المقررة فى هذا الميثاق .

وقد وقفت مصر والدول العربية من هذا الصراع موقف الحياد فامتنعت من التصويت .

حكاية فلسطين

ولعل السبب فى وقوف الدول العربية هذا الموقف يرجع إلى موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى من القضية الفلسطينية ، وهو موقف يلتقى اتجاههما فيه إلى القول بتقسيم فلسطين بين دولتين مستقلتين إحداهما عربية والأخرى يهودية . فشاءت الدول العربية بامتناعها من التصويت فى النزاع القائم بين الدولتين الجبارتين عدم تغليبها رأى إحداهما على رأى الأخرى مادامتا ملتقيتين فى الاتجاه المتصل بفلسطين .

وقد أثار هذا التلاقى دهشة الدوائر الدولية فى مهد الأمم المتحدة وفى سائر البقاع ؛ فقد جاء فى وقت غلت فيه مراجل الخلاف بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بحيث خشى منه على كيان الأمم المتحدة ذاتها .

وعندنا أن هذه الدهشة قد يقضى عليها شئ من التعمق فى تفهم حقائق النظرات إلى القضية الفلسطينية من الجانبين . ولعله ليس من البعيد أن يصح استناد النظرة الأميريكية إلى أن فلسطين إنما هى مفتاح الشرق الأوسط من الناحية الاقتصادية . فاذا تفاهمت الولايات المتحدة أو أرباب المال فيها مع الدولة اليهودية الناشئة فانها تشرف عن طريقهم على تنفيذ بعض المشروعات الكبرى التى يقال إنها ستقلب رمال صحراء النجب إلى جنات مثمرة ، كما تساهم فى قيام المصانع المحولة للمواد الأولية ، وتساعد على ترويج منتجات هذه المصانع وتلك الجنات فى أركان الشرق الأوسط كله .

ولعله ليس من البعيد كذلك أن يصح استناد الاتحاد السوفيتى إلى العناصر

اليسارية التى يكثر توافرها فى البيئات اليهودية ، فتجرف الاتجاه الاقتصادى والاجتماعى فى الدولة اليهودية الجديدة إلى الناحية الشيوعية، فتقيم بذلك وسط كتلة البلاد الشرقية نموذجا من نماذج الأنظمة التى تعتز بها .

وإذن فيكون التقابل فى الرأى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بصدد فلسطين صادراً عن اعتبارين متناقضين ، بل سيكون مهدوفاً فيه إلى مناضلة بين مصلحتين متنافرتين .

والمفهوم حتى كتابة هذه السطور أن تقدم الدولتين الكبيرتين باقتراح مشترك لحل القضية الفلسطينية على قاعدة التقسيم سيحض كثرة أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة على تقرير هذه القاعدة ، ولا سيما أن القرائن قد توافرت على سبق التفاهم بين الولايات المتحدة والحكومة البريتانية على فكرة التقسيم فى عمومها ، إذ كانت المقترحات الأميريكية تبلغ قبل إعلانها وإذاعتها لحكومة لندن أولا فأولا .

بقى الموقف العربى ، موقف العرب داخل فلسطين وموقف الدول العربية المجاورة ، وستكشف الأيام القريبة عنه . فلننتظر .

عجز مجلس الأمن

أما أعمال مجلس الأمن خلال الشهر المنقضى فقد جاءت مسجلة من جديد لما امتاز به هذا المجلس من عجز عن حل المعضلات التى تعرض عليه لتصدر عنه فيها حلول حاسمة . وقد تبين هذا العجز هذه المرة بالنسبة للقضية الأندونيسية . فقد كان لمجلس الأمن فيها قرار سابق يقضى على الفريقين المتقاتلين من الهولنديين والأندونيسيين بوقف القتال وبالعودة إلى المراكز التى يحتلانها ، لكن الفريقين وقفا القتال دون أن يعودا إلى المراكز السابقة ، ولم يستطع المجلس أن يحمل الهولنديين على الرجوع إلى خطوطهم الأولى . . . وظل الاشكال قائماً وواردآ فى جدول الأعمال . . .

المستعمرات الايتالية السابقة

وكانت معاهدة الصلح التى وقعت بباريس بين إيتاليا والحلفاء قد نصت على تقرير مصير المستعمرات الايتالية السابقة فى بحر سنة تبدأ من يوم إتمام إجراءات إبرام تلك المعاهدة . وقد تمت هذه الاجراءات فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر الماضى ، وكان معاونو وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى هم المكلفين باعداد البحوث الخاصة بهذه المسألة . وكانوا قد قرروا تأليف لجنة تقوم بزيارة المستعمرات السابقة وتتصل فيها بالأهالى والزعماء ، فتعرف منهم اتجاهات الرأى العام ، ثم تتقدم بتقريرها فينظر مجلس وزراء الخارجية فى المصير على ضوئه .

وقد بدأت هذه اللجنة أعمالها بالفعل فغادرت لندن فى طريقها إلى أرتريا ثم إلى الصومال ثم إلى ليبيا ، وينتظر أن تنتهى من مهمتها نحو شهر يونية المقبل .

وستدلى الدول ذوات الشأن بمطالبها إزاء المستعمرات الايتالية السابقة ، وحددت هذه الدول بالحبشة ومصر وايتاليا ذاتها . وللحبشة مطالب فى أرتريا وفى الصومال تصل بها إلى منفذ إلى البحر ، ولمصر مطالب فى ليبيا وفى إرتريا ؛ إذ تود استعادة جغبوب من الأولى ومصوع من الثانية . ثم إن لها وللجامعة العربية كلها موقفا من مصير برقة وطرابلس على اعتبار أنهما قطران عربيان .

والاتجاه البريتانى يذهب إلى الرغبة فى منح برقة استقلالها وربطها ببريتانيا بمعاهدة مماثلة لما يربطها بشرق الأردن من رباط ، على أن يكون السيد السنوسى ملكا عليها مشابها للملك عبد الله بن الحسين .

أما طرابلس فقد تطمع فى الوصاية عليها إيتاليا بالذات ، كما تطمع فى أن تضالعها الولايات المتحدة أو أن تساهم فى الاشراف عليها لجنة يمثل فيها الاتحاد السوفيتى .

ولفرنسا علاقة بالمسألة الليبية ناشئة من احتلالها أثناء الحرب لواحة فزان ، وهى تود أن تحتفظ بها لتوافق أصول أهلها مع أصول بعض القبائل المقيمة داخل الحدود التونسية .

مؤتمر وزراء الخارجية

على أن المسألة التى ستجابه مؤتمر وزراء الخارجية قبل أن يعرض لمشكلة المستعمرات الايتالية السابقة إنما هى مسألة معاهدة الصلح مع ألمانيا. وموقف الدول منها غير موحد. وقد ذهبت الولايات المتحدة إلى حد التهديد بعقد صلح منفرد بينها وبين ألمانيا مخالفة فى ذلك العهود السابقة بين الحلفاء. وذهبت روسيا مذهباً آخر هو اشتراطها الاستماع إلى الحكومة الألمانية المركزية حين تؤلف للوقوف على رأيها فى معاهدة الصلح قبل إبرامها. ولم تقل انجلترا ولم تقل فرنسا حتى الآن شيئاً يستدل منه على اتجاهاتهما، ولكن انجلترا أعلنت فى الأيام الأخيرة أنها لاتؤيد الولايات المتحدة فى نشاطها المقاوم للآراء الشيوعية المنتشرة الآن بين الألمان أنفسهم.

ويلوح أن المسألة الألمانية ستكون هى الصخرة التى قد تصطدم عندها اتجاهات الحلفاء. ولذلك فان الجانب الانجلوسكسونى يحاول ألا يقف مع الاتحاد السوفيتى فى حظيرة ضيقة أملا فى معاونة الأفق الأوسع له، فيطالب بأن جميع الدول التى أعلنت الحرب على ألمانيا تحضر مؤتمر الصلح معها، فى حين أن الاتحاد السوفيتى يريد أن يحصر الحاضرين فى الدول التى شاركت فى الحرب الفعلية ضد الألمان؛ كما يطالب بأن الدعوة إلى مؤتمر الصلح يجب أن تصدر عن الصين على اعتبارها خامسة الدول العظمى، فى حين أن الاتحاد السوفيتى لا يريد لها دخلا فى شؤون أوربا بالذات.

محمود عزمى

شهرية السينما

أبو حلموس تأليف نجيب الريحاني وبديع خيرى (نحاس فيلم)

انقضى الموسم المسرحى الماضى دون أن نشهد إنتاجا للاستاذ نجيب الريحانى . وراجت شائعات مختلفة عن هذا الاحتجاب . فأسفنا لذلك أشد الأسف ؛ إذ فقد الفن المسرحى المصرى ركنا من أركانه ، وفقد الشعب معلما ومسليا فى وقت واحد . فمن المعروف أن الأستاذ الريحانى ، وهو صاحب فكاهة رائعة ، يجعل من المسرح أداة لتعليم الجمهور ، فيأتى بصور واقعية من الحياة المصرية ويقدمها على مسرحه فى شئ من المغالاة التى تمده بالعنصر الهزلى . ولو أنه لم يغال فى تصويره لأصبحت مسرحياته مآسى تبكى هذا الشعب لما يشهد فيها من صور أليمة لنفسه ولمن حوله . والأستاذ الريحانى من هؤلاء الذين لا يُغفلون شيئاً مما يقع تحت أبصارهم ولا يهملون شيئا مما يصل إلى أذانهم . ولولا هذه اليقظة لما يدور حوله ، وهذا الانتباه لما يقال فى حضرته لما أمكن للريحانى أن يرسم للمصريين هذه الصورة الصريحة الصادقة ، وأن يسخر من عاداتهم البغيضة ومن أخلاقهم المعوجة الأليمة ومن أحاديثهم التافهة الكريهة . وهو حين يصور هذه العادات البغيضة وهذه الأخلاق المعوجة وهذه الأحاديث التافهة ويتندر بها ويستمد منها النكتة الحلوة والمواقف العذبة المحببة ، إنما يرمى إلى إصلاح ما فسد وتقويم ما اعوج فى هذا المجتمع . فهو إذن من هؤلاء الفنانين الذين جمعوا بين الفن الأصيل واللهو المحبب والتربية الأخلاقية التى يحتاج إليها الجمهور . وهو مع ما يرى من فساد واعوجاج متفائل التفاؤل كله . فما من مسرحية إلا كانت نهايتها مستحبة ترضى الجمهور وترضى تفاؤله الذى لا حد له . فمهما بلغت المحن التى تلم ببطل مسرحياته الذليل المستضعف بسبب المجتمع وعاداته وآرائه ، نجد هذا البطل فى الفصل الأخير من المسرحية ينتصر على المجتمع الذى أذله واستغله وأشقاه وجعله فى يأس وبؤس وعذاب . إن انتصار هذا المعذب على المجتمع إنما هو

الدليل القاطع على استعداد النفوس لأن تصلح وتقوم .

فلكل هذا ساءنا أن نرى هذا الفنان يعتزل المسرح ولما يتم المهمة التى أخذ نفسه بالقيام بها ، مع أنه لم يأل فى سبيلها جهدا مهما يكن من عنفه . ساءنا أن نرى المسرح المصرى الوحيد الذى يقدم للمصريين فنا صحيحا جديراً بهذا الاسم يغلق ، وأن يذهب هباء ، مجهود سنين طوال . ولكن يبدو أن الأستاذ الريحانى لم يستطع أن يحرم المصريين فنه وتعاليمه ، فعاد إليهم فى المسرح والسينما فى وقت واحد. فبينما هو يفتتح مسرح الريتس يقدم لنا فى سينما كورسال فيلماً جديداً عنوانه « أبو حلموس » .

وشريط « أبو حلموس » ما هو إلا مسرحية اسمها « لو كنت حليوه » حورها الأستاذان الريحانى وبديع خيرى لتصلح للسينما ، فأضافا إليها بعض المناظر وأغفلا بعضها، حتى أصبحت قصة صالحة للفن السينمائى . و «أبو حلموس» تستمد قوتها الفنية لا من قصتها و إنما من الصور التى تقدمها لنا . ففى هذه القصة نجح الريحانى فى تصوير طبقة من المجتمع المصرى جديرة بأن يعنى بها الاجتماعيون ، ألا وهى طبقة نظار الأوقاف وموظفيهم الذين لا يردهم ضميرهم عن السرقة وابتزاز الأموال .

وقد التزم الأستاذ الريحانى فى هذا التصوير دقة عجيبة واصطنع أمانة تثير الدهش . فلم يترك أى تفصيل إلا أتى به فى قصته . فساق إلينا فى أسلوب مضحك لا يخلو من سخرية الطرق التى تلجأ إليها هذه الطبقة فى سرقاتها : فمن تزوير فى السجلات إلى أخطاء فى الحسابات ، إلى غير ذلك . وهو إلى جانب هذه القصة الأليمة التى أضحكتنا ، قدم لنا صورة أخرى من فتيات هذا المجتمع الذى يطمح إلى الرقى ولا يجد إليه سبيلا . فتاة تستغل سذاجة أحد موظفى أبيها لتصل إلى مرامها وهو أن تتزوج بمن تحب . وهى دائبة على هذا الاستغلال حتى يتضح لها أن من تستغل يخصها بحب صادق أمين .

وقد كان النجاح حليف الأستاذ الريحانى ومن معه من ممثلين فى أداء أدوار هذه القصة . والأستاذ الريحانى ، مثلا ، فى غنى عن أن نقدمه للجمهور أو أن نحلل أسلوبه فى الأداء . وأكبر الظن أن قليلين يستطيعون أن يصطنعوا هذه الدقة فى التعبير ، وهذا القصد الذى لا يلتزمه إلا الفنان المخلص لعمله . واعتقد أنى لا أغالى حين أقول إنى لم أشهد فى مصر من

يمكنه تمثيل المشاهد الصامتة كما يمثلها الأستاذ الريحانى . ولا أريد أن أترك الحديث عن التمثيل دون أن أحمد لكمال المصرى تمثيله لشخصية الباشكاتب القبطى ، وأن أثنى على السيدة مارى منيب لأدائها شخصية العانس التى تبحث عن زوج ، هذا الأداء الصادق ، وأن أمتدح الأستاذ عباس فارس لاتقانه شخصية ناظر الوقف مع أنه قد أسرف أحيانا فى التعبير والصياح .

وكان فيلم « أبو حلموس » تحت إدارة الأستاذ الريحانى ، ومن إخراج الأستاذ ابراهيم حلمى . وفى هذه الناحية لا يسعنى إلا أن أمتدح للأستاذين اختيارهما للمناظر وخاصة منظر منزل ناظر الوقف الذى يمثل تمثيلا دقيقاً الروح المصرى وخلق به المخرج والمدير الفنى الجو المصرى الأصيل . إلا أن هناك بعض الأغانى أدخلت على القصة إدخالا لا مسوغ له ، وجاء الرقص غير منسجم يشوبه أحياناً بعض الاضطراب . فلو أنهما لم يسرفا فى المناظر الغنائية الراقصة لجاء الاخراج متقناً كل الاتقان . وكنت أود أن يهتم الأستاذان بالتصوير أيضا . فالصورة يعوزها الضوء الصحيح إذ أنها بيضاء . ثم إن هناك ناحية فى التصوير مهملة كل الاهمال فى الأفلام المصرية . فالمصور لا يهتم بأن يختار الزاوية الصالحة للتصوير . وهذا النقص يظهر جليا فى تصوير الأشخاص أكثر مما يظهر فى تصوير المناظر . فالمصور يقترب من الممثل بآلة التصوير حتى تبدو ملامحه مضخمة مشوهة . ولم يكن تصوير المناظر خاليا من العيوب . فهنا أيضا لا يدرك المصور أن ثمة اعتبارات يجب أن يحسب لها حسابها . فهو مثلا لا ينظم صورته ولا ينسق تفاصيلها وانما يلتقطها اعتباطا فتطغى بعض عناصرها على بعضها الآخر فتبدو الصورة مضطربة كل الاضطراب . وآلة التصوير ما هى إلا آلة يجب أن يتحكم فيها المصور ويستغلها ليحقق ما يرمى إليه من صور فنية رائعة ولوحات جميلة خلابة . وأما فى هذا الفيلم فلم أر استغلال المصور للآلة وانما — مع الأسف — رأيت تحكم الآلة فى المصور .

وخلاصة القول إن إنتاج « أبو حلموس » يحتل بين الأفلام المصرية المكان الأول قصة وتمثيلا وإخراجا ، على رغم ما لمست فيه من ضعف فى التصوير . وهذا الضعف نلمسه فى الانتاج المصرى عامة .

فلو أن منتجينا ومخرجينا احتذوا الأستاذ الريحانى فى إنتاجه السينمائى لكانت حال السينما المصرية تختلف عما هى عليها الآن . فلنشكر إذن للاستاذ الريحانى هذا المجهود ، ولنتمن له دوام التوفيق فى عمله الفنى .

هيومورسك (إخوان وارنر) (١)

منذ ابتدع أورسون ولز وسام وود طريقة عرض الحوادث بالتقهقر أى من آخرها إلى أولها التزم المخرجون الأمريكيون فى عرض القصة هذه الطريقة لايصدفون عنها ؛ فيعرضون على النظارة المنظر الأخير من قصتهم ثم يعودون إلى المنظر الأول منها عن طريق الذكريات مثلا أو سرد الحوادث . وإذا كانت هذه الطريقة عدت طريفة حين ابتدعها إورسون ولز فى فيلم « المواطن كين » فقد أصبحت الآن لكثرة استعمالها دون مسوغ مملة مزرية بالقصة التى نطلع على نهايتها قبل أن نعرف الحوادث والظروف التى أدت إلى هذه النهاية .

وأورسون ولز حين ابتدأ « المواطن كين » بمشهد وفاة البطل إنما أراد بما فى هذا المشهد من عناصر مختلفة مثل الضوء القاتم الذى كان يغمر الحجرة ، وتلك الكرة الزجاجية التى يمسكها كين وحيث يتّساقط الثلج ، أن يجمع فى هذا المنظر المراحل المختلفة التى سيمر بها بطل القصة من طفولته المتضعة ، وقد رمز إليها بالكرة الزجاجية إلى كهولته الموسرة ، وقد رمز إليها بالقصر الذى يموت فيه كين . فثمة إذن مسوغ قوى للبدء بالنهاية . أما فى الفيلم الذى أتحدث عنه اليوم فلا أجد ما يسوغ عرض القصة على هذا النمط . فالمخرج فى المنظر الأول من الشريط يرينا الموسيقار بول بورى وقد استسلم لليأس العنيف دون أن ندرى أسباب هذا اليأس المفزع . ويترك البطل لذكرياته العنان ، فنراه طفلا مرحا مشغوفا بالموسيقى حتى ليضطر أهله فى يوم عيد ميلاده أن يشتروا له كمانا وهو لا يدرى كيف تستعمل هذه الآلة الموسيقية . فما الداعى إذن إلى المنظر الأول ؟ وما مسوغه ؟ وما عذر المخرج فى التجائه إلى هذه البداية إلا

---

(١) Humoresque (*Warner bros*)

أنه أراد أن يأتى بشئ جديد فلم يستطع إلا أن يحاكى مخرجين كانوا أكثر منه طرافة وأقدر منه على الابتكار ؟

ويأخذ الشريط فى سرد حياة الموسيقار طفلا ثم صبيا ثم شابا ؛ فيصوره لنا سولعا بالموسيقى مشغوفا بفنه لا يمنعه عنه مانع ولا يشغله عنه شاغل . وقد أطال المخرج أيضا فى هذه المشاهد مع أنها ليست ذات خطر. أما كان يكفى ليصور ولوع الموسيقار بفنه مشهد شراء الكمان فى طفولته ؟ فليس من الضرورى أن نرى تمرينات هذا الطفل ثم هذا الصبى ثم هذا الشاب على الآلة الموسيقية ، ونستمع إليها . وليس مشهد دروسه فى المعهد الموسيقى ذا شأن . فكان لابد من العرض السريع لهذا الجزء من حياة بطل القصة حتى نصل إلى المرحلة التى تبدأ فيها مأساة غرامه . لقد كان يعوز الموسيقى الشاب بعض المال ليعرض فنه على الجماهير . فصادف امرأة ثرية لا هم لها إلا تشجيع الفنانين ومساعدتهم حتى يصيبوا شيئا من الشهرة . ولم تكن هيلين رايت — وهو اسم هذه السيدة — قد وجدت سبيلها إلى السعادة وإلى الحب الصادق ، فكانت تعيش فى وحدة موحشة لا تجد إلا فى الخمر ما ينسيها بؤسها وشقاءها . وقد عنيت ببول كل العناية وأخلصت له كل الاخلاص لما لمست فيه من ولوع بفنه وعزيمة قوية إلى أن يسمو بهذا الفن إلى أعلى درجات السمو . وقد أدى بها هذا الاخلاص لخدمة بول وهذه العناية إلى الكلف بالشاب . فها هى ذى تسعد لأول مرة بحب متبادل ينقذها من وحدتها. ولكن هناك فن بول يفصل بينها وبين عشيقها . وهى لا تريد أن يضحى الشاب بهذا الفن ليعيش إلى جانبها دائما ويحقق لها حياة سعيدة طالما طمحت إليها . وهى من ناحية أخرى ترغب رغبة شديدة فى أن تجمعهما حياة واحدة . فكان سوقفها عنيفا بين فن لاتحب أن يزول وبين كلف لاتود أن يشقيها . فليس إذن من مخرج إلا أن تنتحر لتترك لعشيقها السبيل إلى أن يخلص لموسيقاه .

وإذا كان المخرج لم يوفق فى عرض القصة فى بادئ الأمر فهو قد توصل إلى طريقة طريفة متقنة للانتقال من منظر إلى منظر . وقد نوع فى هذا الانتقال كلما وسعه التنويع . فيختار حينا صورة لينتقل بها إلى صورة مشابهة فى المنظر التالى ، ويختار حينا آخر صوتا يجد له ما يماثله فى المشهد الذى

يريد الانتقال إليه . وعلى سبيل المثال أذكر هذا المشهد : هيلين تنظر إلى صورة لبول طفلا وهو ممسك كمانه . وتحتل تلك الصورة الشاشة كلها ثم تنقلب شيئا فشيئا حتى نرى بول يذيع فى إحدى قاعات الموسيقى . ومثال آخر الصوت فيه هو عنصر الانتقال : هيلين تصب فى الكوب بعض الصودا التى تختلط بالشراب فى شئ من العنف . فهذا الصوت وهذا المنظر يتيح للمخرج أن ينتقل إلى صورة البحر والأمواج تختلط بعضها ببعض فى عنف مشابه .

وقد أتاح التصوير المتقن للمخرج أن يوفق التوفيق كله فى تسجيل تنقلاته هذه من منظر إلى منظر ، كما أتاح له أيضا أن يصور لنا تمثيل جون كراوفورد فى دور هيلين رايت .

إن هذه الممثلة بقدرتها الفنية التى تعينها على التعبير الصادق قد استطاعت أن تصور لنا نفسية هذه المرأة . فكأن وجهها مرآة لنفس الشخصية التى تمثلها . لقد كان الشاهد يشعر من نظراتها ، من طريقتها فى صب الشراب وعبه ، بما تضطرم به من بؤس ووحدة وحاجة إلى حب صادق يملأ فراغ قلبها الموحش .

ومهما يكن من هنات فى الاخراج وعرض القصة فيمكن أن يعد هذا الانتاج من خير ما أنتجته أمريكا فى الموسم الحالى ؛ إذ أننا لم نشهد للآن إلا أفلاما قصصها سقيمة ضعيفة مثل قصة « امرأة غريبة » أو « مغامرات ولتر ميتى » أو ذات إخراج يعوزه الفن الصحيح مثل « قسمة » .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

HERMÈS TRISMÉGISTE ET LA CRISE DU RATIONALISME

ETIEMBLE

هرمس مثلث العظمات وأزمة المذهب العقلى *

إن الضجة الكبيرة التى تثار حول الآثار التافهة أو الضارة تحول دون بلوغ الأصوات الصحيحة أسماع البشر . ويبدو لى أن الأثر الأخير للأب فستوجيير Festugière وعنوانه « حقيقة هرمس مثلث العظمات » *La Révélation d'Hermès Trismégiste* لم يقابل بما كان خليقا أن يقابل به مثل هذا العقل النير الذى ينتظم كل تلك المعلومات . ومع أن الجزء الأول « التنجيم والعلوم الخفية (١) » هو الوحيد الذى ظهر من مجموعة كتب ثلاثة كان لا بد أن تكون على غاية من الأهمية ، فان المقدمة الغزيرة التى تقع فى ٩٠ صفحة تلقى الضوء على مشروع الأثر فى جملته وتساعد على التكهن بماسيكون عليه الأثر إذا ما أنجز .

ولست أملك أن أمتدح أو أن أذم قيمة الاطلاع العلمى فى مؤلف « هرمس مثلث العظمات » ، غير أنى كنت أذكر أفضاله لواحد من كبار علمائنا فى آثار البردى وهو الأستاذ جان شيرير المدرس بجامعة فؤاد الأول ، فكتب لى يقول : « إن « هرمس » فستوجيير ربما كان خير مؤلف ظهر أثناء الحرب . إن الذين اتصلوا بتلك النصوص المروعة ليقدرون مثل هذا المجهود فى سبيل الايضاح . » وكنت أنا أحس بذلك فبلغ الاحساس منى اليقين . والجزء مزود بملحق كتبه لويس ماسينيون بعنوان

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

(١) الناشرون : جابلدا ، باريس ١٩٤٤ .

«بيان عن الأدب الهرمسى العربى»، ويعتبر أول مجموعة من مراجع علم لم يستكشف بعد. ولو أن كل فضل «هرمس المثلث العظمات» انحصر فى عرض وترجمة وشرح النصوص المنسوبة إلى توت — هرمس، ونشر بيان بالأدب الهرمسى العربى، فانه مع ذلك يستدعى اهتمام الأدباء الشرقيين، فسيجد فيه علماء اليونانية والعربية وعلماء اللاهوت والفلاسفة مواد نادرة غزيرة يجولون فيها بنافذ بصيرتهم التخصيصية.

غير أن للكتاب مزايا أخرى؛ فهو يحلل لغير الاخصائيين وللمثقفين أزمة اللاعقلية التى اجتاحت العصر الهلينستى، حين انتشر فى العالم اليونانى الرومانى «عدد من الحكم السماوية التى كانت تنسب إلى بعض مجوس فارس (زورواستر وأوستانس وهستاسب) أو تنسب إلى أحد آلهة (توت — هرمس)، أو إلى المنجمين القادمين من كلدانيا، بل كانت تنسب أيضاً إلى أنبياء أو فلاسفة من اليونان كانوا أكثر من غيرهم قرباً إلى الأموز الالٰهية. ذلك أن الفيثاغورية والأورفية قد عادتا إلى الازدهار من جديد فى ذلك الحين.» وقد ساد وقتئذ ما هو جدير حقا بأن يسمى بدعة. فبعد وفاة القديس سيبريان الأنطاكى باحدى وعشرين ومائة سنة، كتب القديس جريجوار دى نازيانس يمدحه فقال إنه درس السحر فى مصرمدة طويلة، وفى كلدانيا تعلم الفلك. وإنا لنجد متعة فيما نحا إليه الكاتب من خلط بين حياة القديس وبين الحياة النظرية الخرافية التى كان لابد أن يحياها رجل تقى يرمى إلى التأثير فى عقول أبناء عصره. فاذا كان مثل القديس سيبريان قد أخذ بالهرمسية، فلا موضع للدهش إذا قيل إن توت هرمس هو صاحب رسائل التنجيم، ونظريات الكيمياء الكاذبة، والمؤلفات السحرية، وكل ما كانت الأذهان المتعارضة مع العقل تعتبره حينئذ علما.

وقد سرت عدوى مؤلفات مثلث العظمات فى الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط بتلك السرعة التى تتوالد بها خلايا السرطان. وكان كل من أراد لفكرته أن تذيع وتسود، ينشرها تحت اسم الاله توت. وقد فسر زوزيم مثلث العظات بالطريقة الثلاثية لما هو منتَج وما هو منتِج»، كما فسره أحد المشتغلين بالكيمياء الكاذبة بطريقة مختلفة إلا أنها ليست أقل جزما: فقيل إن هرمس مثلث

العظمات لأنه يصنع الذهب « على خطوات ثلاث من خطوات الطريقة العملية» وليفهم من استطاع إلى الفهم سبيلا ! مع أن الحقيقة على بساطتها ليست أقل روعة ؛ ففى اللغة المصرية القديمة يعبر عن صيغة التفضيل بتكرار الصفة نفسها . فاذا كانت آآ معناها كبير فكلمة آآآآ معناها كبير جدا . وترجمتها باليونانية μέγας καὶ μέγας (عظيم وعظيم) غير أن من طبيعة اللغات أن تبلى . لذا حدث منذ القرن الثانى مع أن معنى التفضيل لكلمة μέγας المكررة قد نسيه الكتاب وأغفلته الشعوب . ومن وقتئذ ظهرت فى الأدعية والابتهالات عبارة μέγιστος καὶ μέγιστος (عظيم وعظيم) أوعبارة μέγιστος καὶ μέγιστος καὶ μέγιστος (عظيم جدا وعظيم جدا وعظيم جدا) أى مكررة ثلاثا ، لما كان للعدد ثلاثة من تأثير سحرى ، ومعناها τρισμέγιστος أى هرمس الأعظم ثلاث مرات ، أى هرمس العظيم جدا ثلاث مرات ، أى هرمس مثلث العظمات Hermès Trismégiste . (وذلك رغم أنف كل من يتأثر بمقاطع الألفاظ ويحملها معانى سحرية كلفظتى أبركساس أو أبراكادابرا !)

والأب فستوجيير يقيم الدليل على أننا يجب أن نصدق حقيقة الكتابات الهرمسية بقدر ما نصدق ما شاع من خرافات حول أصل تسمية الإله الساحر أو ما يرمز إليه . وإذا كان اللاعقليون يقولون إن ما نسب من مؤلفات إلى هرمس قد انتقل منذ عام ٤٨ — ٨٦٣ قبل الاسكندر ، إلى داخل الجمعيات الدينية أو الصوفية التى اتخذت منه فرائض صلاتها ، فالأب فستوجيير على نقيض ذلك يرى فى هذه الآثار التى تتضمن عقائد متنافرة وتشمل مبادئ متناقضة ، مظاهر لنوع أدبى بحت . « فرؤيا الله » لدى أشياع هرمس فى القرن الثانى ، قد لعبت نفس الدور الذى لعبته بدعة « أوصاف الأشخاص » portraits فى عصر الملك لويس الرابع عشر .

ولا يقتصر المؤلف على وصف أعراض الداء بل ينقب عن أسبابه : ففى القرن الثانى من المسيحية « انهارت أركان العقل والجدل والمذهب الانسانى من كل النواحى ، واختلطت تحت أنقاضها فى عاصفة هوجاء كل القوى اللاعقلية ، فاذا بالاضطراب يعترى كل هذه الأرواح وكل هذه الأبخرة التى كان يستحضرها فن النبى والمجوسى والكيميائى الكاذب

ويناجى الموتى . » وقد عم الرخاء ذلك العصر ، كما سادت فيه بقدر ما كان منتظراً رفاهية مادية أعظم بكثير مما كان فى العصور السابقة . والمؤلف يسائل نفسه عن السبب الذى من أجله «لم يعرف القرن الثانى نهضة عقلية حقة ، والذى من أجله كانت قوة الفكرة ووضوحها فى هبوط متصل » . والذى من أجله بموجز القول « لم يصحب الرضاء المادى العظيم الذى كان ينعم به العالم فى ذلك الحين ، ازدهار يماثله فى الانتاج العقلى » . إن هذه الظاهرة التى تعد بحق من أهم الظواهر فى تاريخ البشر ، من العبث أن نبحث عن أسباب لها آلية أو اقتصادية بحتة . والحقيقة مهما تكن مخيبة للرجاء ، هى أن المذهب العقلى اليونانى الذى كان يسود الفكر حينئذ ، هدم نفسه بنفسه فى عنف وقوة . « وبما أن العقل فعلا تحرر وأخذ يتيه كما يشاء دون أن يجد الضابط الطبيعى له فى نظرة أعمق وأصلح للعالم المحسوس ، فكان لابد أن هذه القوة المنطقية نفسها التى استخدمت فى إقامة البناء ، استخدمت كذلك فى هدمه . » لاشك أن أفلوطين ومدرسته حاولا إنقاذ القيم اليونانية وسخرا من أولئك الذين يستسلمون للسحرة . فأسرار العلوم الالهية وطقوس السحر تتغلب حتما على الفكر المنطقى المجرد ، المثالى فى منطقه ، والذى لم يتمكن من الاستزادة باختبارات لا تنفك تتجدد ويعاد البحث فيها ، فينتهى به الأمر إلى فقد حيويته ثم إلى ضعفه ثم إلى تلاشيه .

إن فيثاغورية تحكمية αὔτος ἔφα كما قال فيثاغور نفسه ، ونظريات مجازفة عن الأعداد ، كانت تكفى لارضاء رجل القرن الثانى الذى كان لا يجد هذا الرضا نفسه فى عقل معقّم ، فكان من نتيجة ذلك ما رأيناه من ظهور دين ، هو دين خلاص ، ومن ظهور عذراء الاسكندرية هيباتى Hypathie العالمة الحكيمة التى قتلها المسيحيون (٣٩١) .

وماذا نرى اليوم ؟ نرى من ناحية العقليين التحكميين الذين تميزوا بالجفاف أمثال جوليان بندا Julien Benda ، فهم لا يمارسون التفكير إلا فى الفكر نفسه . وهم إذا كتبوا عن « دورة الصفوة » circulation des élites فى الولايات المتحدة اعتقدوا أنهم يفقدون قدرهم بدراستهم الظواهر التى تقيم الدليل على أن عامل الامتصاص بين الطبقات الاجتماعية

لا أثر له فى أمريكا . أما أصحاب « المذهب العقلى الحديث » أو بمعنى آخر الماركسيون الراشدون ، فهم أكثر اهتماما بالتجارب ، إن لم يكن فعلا فمبدئيا على الأقل . وهم يبدون بالفعل الاحتقار نفسه للتجارب أو الملاحظات التى تسىء إلى مبادئهم . وهم يذهبون إلى حد إثبات أن المذهب العقلى الحديث يخلص الانسان من الموت . ذلك لأن الموت ما هو إلا النفى « المنطقى » L'antithèse dialectique للحياة . ليس هذا رأى كل الذين صدموا بجفاف فكرة نظرية اجتهادية وبالتالى غير إنسانية، ومازالوا يناشدون اليوم هرمس كما ناشدوه بالأمس لتبديد قلقهم .

وقد لاحظت فعلا من قراءتى الآثار الأخيرة لأندريه بريتون ، أن زعيم مذهب السيريالزم يمنح يوماً بعد يوم نصيبا أكبر وأخطر لعلم الغيب والعلوم الخفية من سحر وتنجيم وللسنة الهرمسية. وقد أنشأ قصيدة كاملة « الساحرة مرجانة » *Fata Morgana* على نغمة « مومياء إيبيس » . وهو يأخذ على عاتقه قصة « أوزيريس إله أسود » ويأخذ أيضا بأتفه التفاصيل ما دامت هذه التفاصيل مقتبسة من مؤلف « هرمسى » . ولما كان الحرفان الأولان من اسمه ولقبه A و B قريبى الشبه فى توقيعه بالعددين ١٧ و ١٣ ، فهو يعتقد أنه نذر لأن يتأثر بسيالات هذين العددين ، فتراه يكتب ركن ١٧ Arcane 17 ، ثم يواصل بالتدريج هذه النظرية الرقمية الغريبة حتى يأخذه الهذيان إلى درجة انشاء منهج ، وحتى يصل به التفكير إلى أبواب الجنون . ونجد فى كوبا تلميذه الرسام ولفريدو لام ، ينشىء لوحة تحت عنوان « هرمس مثلث العظمات » مع أن مضمونها التشكيلى لايستدعى مطلقا هذا العنوان الذى وضع فى غير موضعه . « ليسقط العقل » تلك صيحة ما زال يرددها فى كل مكان تقريبا عدد كبير من الشبان الذين يحلفون بهرمس وبالاكتو بلاسما وبالنضد الدائرى . ونحن نخطىء إذا استخففنا بهذا التطور الأخير لمدرسة السيريالزم ، فهو يكشف فى القرن العشرين عن القلق نفسه الذى شاهدنا آثاره فى القرن الثانى . ولم ينخدع بذلك رجال الدين؛ فمع أن الكنائس تُدين الأنظمة الهرمسية ، فنحن نرى الذين يصيدون النفوس فى الماء العكر يهنئون أنفسهم بهذا الميل المعاصر للعلوم الخفية ؛ فهو فى اعتقادهم يبشر بالعودة إلى التقاليد المتوارثة

«وبالأصح إلى التقاليد المسيحية» (١) .

وبدلا من الاستسلام لتلك المغريات ، يجدر بالانسان اليوم أن يرد للعقل اعتباره فى كامل قوته وتنوع رسالته هذا التنوع العجيب . وإذا كان اللاعقليون قد نجحوا فى إعلان بطلان هذا العقل الواهى القوى الذى يدمر نفسه بنفسه ، فهم لم يتوصلوا حتى الآن إلى نقد العقل الآخر نقدا ذا خطر ، كعقل ديكارت هذا الذى كان يقدر العواطف ، وعقل ديدرو هذا الذى كان يتعهدها تعهداً متصلا ، وهذا العقل الذى أتاح للانسان أن يحطم الذرة ، وأن ينشئ مذهباً أخلاقيا لنفسه . فليس هرمس على أية حال هو الذى عثر على البنسلين بل الدكتور فلمنج . وليس توت هرمس هو الذى ألقى الضوء على حقيقة ميولنا بل سيجموند فرويد وغيره . وليس يوحنا ورؤيته هما اللذان ساعدانا على تفهم اللاعقليات بل جيمس فريزر وأثره « غصن الذهب » *Rameau d'Or* .

وقد كتب جان بولان : « يوجد نوعان من الفهم (أو من المذهب العقلى) : الأول يكتفى بأن يطبق تطبيقاً دقيقاً بعض القواعد — وهى ميتافازيقية غالباً — وضعت فى أول الأمر بدون أى برهان أو إقامة أدنى دليل . ولكن هناك فهماً آخر (أو مذهباً عقليا آخر) ، يتبع الملاحظة البطيئة والتجربة المنظمة ، ويحاول أن يستنتج بعض قوانين ، ويجتنب التحيز والتعصب مهما كانا مغريين ، ويمتنع عن الاستنتاج ما وسعه الامتناع . وإنى أود أن يكون ذلك مذهبى . »

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكم

---

(١) جى ميشو « الرسالة الرمزية » باريس ، نيزيه ١٩٤٧ .

من وراء البحار

منطقة النفوذ الروسية فى أوربا وأمورها الاقتصادية

أسدت إلينا مجلة « العالم اليوم » الانجليزية خدمة كبيرة حين نشرت فى عدد أكتوبر مقالا عن الحالة الاقتصادية فى منطقة شرق أوربا الخاضعة للنفوذ الروسى ، اذ تقول : إنه بينما تنظر الأمم الست عشرة فى غرب أوربا قرار أمريكا فيما يتعلق بمقترحات مؤتمر باريس ، الذى عقد على أثر مشروع مارشال ، يستمر القسم الشرقى من القارة فى تحول اقتصادى أساسى قد يغير بمرور الزمن وجه أوربا الشرقية تغييراً تاما ؛ وليس ذلك فحسب ، بل قد يحدث ثورة فى العلاقات بين الأمم المعروفة من قديم بصناعاتها وبين الأمم التى كانت تعتمد فيما مضى على صادراتها الصناعية . فان البحث يدور الآن فى وضع مشروع ينفذ فى عشر سنوات فى أوربا الشرقية ، وهو مشروع شامل يؤدى إلى اتحاد منطقة النفوذ الروسى ويجعلها مستقلة تماماً عن العالم الغربى . لذلك كان من المناسب استعراض التطورات فى تلك المنطقة منذ انتهاء الحرب .

لقد اعترف الباحثون فى العلاقات الدولية منذ أمد بعيد بأن تقطيع أوربا الشرقية إلى وحدات اقتصادية على أثر الحرب العالمية الأولى كان من الأخطاء الكبرى ؛ لذلك رحبوا بالجهود التى بذلت فى أثناء الحرب الثانية لكى توجد الظروف الملائمة لتعاون مثمر بين دول تلك المنطقة . وكان يراد إقامة هذا التعاون على أساس اتفاق التشك والبولونيين ، ثم اتفاق اليونان واليوغسلاف . وكانت الفكرة ترمى إلى ضم جميع الدول فى المنطقة الممتدة بين بحر البلطيق وبحر إيجه بحيث يشمل ١١٥ مليونا من البشر ، مما يجعل التعمير والتقدم الاجتماعى ممكنا . وكانت فكرة جريئة ، غير أنه قبل أن يشرع الخبراء فى العمل لتنفيذها عارضتها روسيا فقتلت الفكرة فى المهد .

فقد تذكرت روسيا فكرة الحاجز الصحى الذى أريد إقامته من حولها من قبل ، وتذكرت مشروعات ترغب فى تنفيذها ، فأدى ذلك إلى رفض

أى مشروع يعمل لحل مسألة أوربا الشرقية ولا تكون روسيا مشتركة فيه اشتراكا فعليا . ولما تمكنت روسيا من إقامة حكومتين سواليتين لها فى بولونيا وفى يوغوسلافيا كان فى ذلك القضاء على هذه الفكرة الأولى نهائيا .

ولقد رأى العالم بعد انتهاء الحرب ظهور مشروع جديد لا يمتد من الشمال إلى الجنوب كالمشروع البريطانى ويتخذ مركزه من الاتصال بين وارسو وأتينا ، وإنما هو مشروع يقوم على عدد من المعاهدات والمحالفات ، ويمتد من الشرق إلى الغرب فيصل بين موسكو وفارسوفيا وبين موسكو وبراج وبين موسكو وبلغراد وهكذا . وعلى أساس هذه الاتفاقات الثنائية استطاعت روسيا أن تحصل على ما كان يحرمه عليها المشروع البريطانى ، فيصير لها نفوذ مباشر فى كل عاصمة يسد حاجاتها الاقتصادية ويؤكد سلامتها . وبعد أن حلت روسيا مشكلة السلامة ، ولم يبق هنالك ما يهددها فى تلك البلاد المحيطة بها ، عمدت إلى السماح لهذه الدول التابعة بأن تعقد الاتفاقات فيما بينها . وإذا كان رفض حكومات هذه الدول الاشتراك فى مؤتمر باريس على غير إرادة الشعوب نفسها ، فان دراسة صحافة تلك البلاد تؤدى إلى القول بأنه لم يكن لهذا الرفض تأثير سيئ دائم . فاذا كانت هذه الشعوب قد حرمت مزايا الأدوات والآلات الأمريكية ، فقد أخذت تفكر فى تنفيذ مشروعات هامة ، وتتحدث الصحف كثيراً عن وجوب الاعتماد على النفس والأمل فى مساعدة روسيا . وسيبدو فى المستقبل هل هذا النشاط سيسفر عن شئ مادى أو يكون مجرد أحلام .

الواقع أن المشروعات تشغل بال الحكومات فى أوربا الشرقية ، فنرى تلك الدول تضع المشروعات التى يجب تنفيذها فى مدى سنتين أو ثلاث سنوات أو خمس سنوات لكى تنهض بالاقتصاد الوطنى . وتعمل هذه الحكومات لعقد اتفاقات مع جاراتها ومع الدول الواقعة فى المنطقة . وكل هذه الاتفاقات ذات علاقة بالمشروع الروسى الذى قدر له خمس سنوات والذى ينفذ الآن ، وبالمشروعات التى تفكر فيها روسيا للمستقبل . ويمكن اجمال هذه المشروعات فيما يأتى :

أولا — إعادة تعمير روسيا سريعاً بمعاونة جاراتها .

ثانيا — اعتماد المناطق على نفسها بتوجيه دول البلقان للصناعة وزيادة القوة الصناعية فى بولونيا وتشيكوسلوفاكيا .

ثالثا — إنشاء وحدة اقتصادية كبيرة تساوى أو تزيد على قوة أمريكا أو قوة بريطانيا ودول غرب أوربا مجتمعة .

وإذا كانت المصالح الخاصة للدول الصغرى المشتركة فى مؤتمر باريس قد وجدت اهتماما ورعاية ، فليس من الصعب أن نتبين أن هذه المصالح الخاصة لجارات روسيا لم تجد من الرعاية إلا بقدر عدم تعارضها مع الخطة العامة التى وضعتها روسيا لتنظيم هذه المنطقة اقتصاديا . ولقد صار من البين الآن أن المشروعات التى وضعتها دول أوربا الشرقية ليست عبثا، كما أنه ليس من الحكمة الاعتماد على أن تعود هذه الدول إلى الاثرة المعروفة عنها . وقد يعتمد القائلون بهذا الرأى الأخير على الأرقام التجارية لهذه الدول مع روسيا فيما قبل الحرب ، حين كانت روسيا لاتصدر لدولة مثل تشيكوسلوفاكيا غير ١,٨ من وارداتها وأقل من ذلك لبولونيا ورومانيا ويوغوسلافيا . ولكن هذه العلاقة كانت خاضعة للظروف السياسية القائمة وقتئذ ، وأدت إلى قيام ألمانيا بملء هذا الفراغ ، مما هو معروف لدى الباحثين فى الأمور الاقتصادية .

وأدى سقوط ألمانيا واحتلال الجيش الأحمر لأوربا الشرقية إلى أن صار الموقف الاقتصادى الجديد ملائما جدا لروسيا . وقد اختفى أهم شريك لهذه الدول فى أمورها الاقتصادية ، وانقطعت المواصلات تماما مع غرب أوربا ؛ فلم يبق أمام هذه الدول غير روسيا . ثم إن اتفاق بوتسدام قضى بأن تمتلك روسيا كل مخلفات الألمان فى تلك المنطقة ، فوضعت روسيا يدها مثلا على مائتى شركة فى المجر . ثم إن فرض تعويضات على رومانيا والمجر لروسيا — إذ فرض على الأولى ٣٠٠ مليون دولار ، وعلى الثانية ٢٠٠ مليون دولار — سهل إنشاء شركات مختلطة روسية رومانية ، وروسية مجرية ، وكانت نتيجة ذلك أن روسيا اليوم تحتل مكان ألمانيا فى تجارة هذه الدول ، وكان قسطها فى تجارة ثلاث من هذه الدول فى سنة ١٩٤٦ كما يأتى :

المجر : الصادرات ٤٥ ٪ — الواردات ٤٩ ٪ .

بلغاريا : الصادرات ٦٦ ٪ — الواردات ٨٢ ٪ .

بولونيا : الصادرات ٥١ ٪ — الواردات ٧٤ ٪ .

وإذا كانت الأرقام ليوغوسلافيا ورومانيا غير معروفة فانها تماثل هذه النسبة تقريباً .

والاستثناء الوحيد لهذه الظاهرة وفى جميع الظواهر الأخرى هو حالة تشيكوسلوفاكيا ؛ فانها كانت فيما قبل الحرب على اتصال اقتصادى قوى مع غرب أوربا ومع ألمانيا . وبالرغم من التشدق بوجوب التضامن السلافى فى تلك البلاد ، فان تجارة يوغوسلافيا لم تزد فى وارداتها من روسيا عن ٩ ٪ وفى صادراتها إلى روسيا عن ١٢ ٪ فى سنة ١٩٤٦ . وتدل البيانات التى أعلنت فى يونيه سنة ١٩٤٧ على أن روسيا تشغل المحل السابع بين زبائنها ، والمحل الحادى عشر بين الموردين لها . وهذا ما يفسر قوة تشيكوسلوفاكيا نسبيا فى موقفها نحو الاتحاد السوفيتى . ولذلك عند ما أعلنت حكومتها أولا الرغبة فى الاشتراك فى مؤتمر باريس الذى عقد لمشروع مارشال ، بذلت روسيا جهداً كبيراً لسد هذا الخرق الوحيد فى البنيان الذى أقامته بينها وبين الغرب ؛ وعملت لزيادة ربط تلك البلاد بالنظام الاقتصادى فى تلك المنطقة . وكان من نتيجة ذلك أن بذلت وسائل الترغيب ؛ فعقدت معاهدة تجارية ستضمن للتشيك أن يجدوا عملا طوال خمس السنوات القادمة . فقد تم الاتفاق على أن تقدم روسيا مقادير ثابتة من القمح والمخصبات والقطن والمعادن الخام ، فى نظير تقديم التشيك لآلات وأدوات بما يقدر بنحو مائة مليون من الجنيهات. ومع ذلك قد لا يكون هنالك خطر من تابعية تلك البلاد لروسيا واعتمادها عليها ؛ فان حكومتها متيقظة للنتائج السياسية التى تنجم عن إدارة الحياة الاقتصادية فى أى بلد بوساطة عميله الأساسى .

ولقد عقد اتفاق أيضاً بين السوفييت والمجر فى شهر يولية الماضى ، وهو يسرى لمدة اثنى عشر شهراً . وهو اتفاق أكثر شمولا ؛ إذ يقضى بتبادل المواد الخام الروسية بدلا من الآلات المجرية والألومنيوم والبترول مما يقدر بنحو ١٧ مليونا من الجنيهات الانجليزية ، وهو مبلغ يزيد قليلا عن مجموع صادرات المجر فى سنة ١٩٤٦ . على أن الصادرات الزراعية للمجر

التى سترسل لروسيا لا تزيد على ١٠٪ كما هو الحال بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا ؛ فان موسكو مهتمة بالآلات التى تحتاج إليها لمشروع خمس السنوات ، ولكى تحصل على هذه الآلات ضاعفت من كمية الفحم الحجرى وزادت خمس مرات كمية الحديد الخام الذى تصدره للمجر فى سنة ١٩٤٦ . ولذلك فهى تقدم ثلث حاجة المجر من هذين النوعين . على أن تحسن الموقف الاقتصادى السيئ جداً للمجر لا يكون إلا بتغيير أساسى فى سياسة التعويضات التى تسير عليها روسيا والتى لم تكد تبقى للبلاد شيئاً .

هذان الاتفاقان هما أحدث الاتفاقات التى عقدت لبلوغ روسيا غرضها الأول ، وهو تقوية الاقتصاد الروسى الداخلى ، بربطه بالنشاط الاقتصادى لدول شرق أوربا وجنوبها الشرقى حتى تسد هذه الدول حاجاتها . وهى تعمل كذلك فى نشاط للوصول إلى الغرض الثانى وهو زيادة النشاط الصناعى فى تلك المنطقة . وهنا نجد أن لتشيكوسلوفاكيا مركزا ممتازا بالنسبة لكفاية صناعة الهندسة فيها ورقى هذه الصناعة . فهى سترسل إلى بولونيا ما يقدر ثمنه بنحو أربعة ملايين من الجنيهات من الأدوات لمساعدتها فى إقامة صناعة صلب جديدة تستطيع أن تخرج مليون طن فى السنة ، ولكى تحسن موانيها وتزيد صناعة الفحم فى سيليزيا العليا نماء . وستعطى يوغسلافيا مثل هذا المقدار من الآلات وأدوات التعدين فى نظير بعض المواد . وترسل إلى بلغاريا من الآلات ما ثمنه مليون ونصف مليون فى نظير بعض المواد أيضا . ويتم كل ذلك فى خمس سنوات . ولو سارت الأمور سيراً طبيعيا فان تشيكوسلوفاكيا ستصير مصنع أوربا الشرقية .

ومن الاتفاقات الحديثة فى تلك المنطقة اتفاق الصداقة بين يوغوسلافيا وبلغاريا ، وهى خطوة أولى لانشاء اتحاد بينهما . ويحتوى هذا الاتفاق على عدة نصوص اقتصادية ، مع أن الدولتين لا تتم إحداهما الأخرى . أما رومانيا وهى دولة لديها ثلاثة أنواع من الصادرات ذات شأن كبير ، وهى البترول والخشب والمنتجات الزراعية ، فقد أخذت تعيد اقتصادها المحطم بوساطة اتفاقات تجارية مع كل دولة من هاته الديمقراطيات الجديدة .

ولاتفتأ موسكو تردد إلى جانب هذه الاتفاقات ، دعاية عريضة عن أخطار العبودية للنظام الرأسمالى

الاحتكارى الذى يهدد أية دولة من دول شرق أوربا تفضل الاشتراك فى مشروع مارشال . ومع ذلك فقد بدت فى المؤتمر الذى عقدته أحزاب شرق أوربا الاشتراكية رغبة فى اجتناب الخضوع الكامل لحاجات روسيا الاقتصادية ، وهو ما تعمل له السياسة الشيوعية . وقد عقد هذا المؤتمر فى بودابست وأبدى فيه بعض وزراء تلك الدول من الاشتراكيين ما يدل على رغبة فى زيادة التجارة مع دول غرب أوربا .

وفى رأى الكاتب أن ليس ثمة مانع من إيجاد علاقات اقتصادية مع دول غرب أوربا ، مع الاحتفاظ بما لروسيا من رغبة فى ايجاد كتلة اقتصادية شرقية موحدة . فاذا أردنا أن نفحص أغراض روسيا من سياستها فى القريب العاجل ، وأغراضها البعيدة ، فان غرضها البعيد قد يكون احتكار الاقتصاد فى شرق أوربا احتكارا تاماً ، مع عدم السماح بالاتصال بالغرب ، إلا عن طريق وكالة اقتصادية للمنطقة تسيطر عليها روسيا . على أن من أغراض روسيا القريبة ، مع أن أمامها واجبات هائلة لتعمير بلادها مما يضطرها للوصول إلى اتفاقات فى نواح متعددة ، رغبتها على الراجح ، فى التجارة مع الغرب والسماح للآخرين بذلك ، مادام هذا العمل يوطد النظام السوفييتى . فروسيا تريد الأموال من الغرب والتجارة مع الدول الصناعية ، ولكن على الشروط التى تضعها هى ؛ وهذه الاتفاقات التى تربط اقتصاد شرق أوربا بها مما يزيد قوتها فى المساومة . ومع ذلك فان التنظيم الاقتصادى لشرق أوربا يتمشى مع التسلط السياسى لروسيا على تلك البلاد .

لوس انجليز

لعل من أمتع الأوصاف التى قرأناها لمدينة لوس انجليز البلد الشهير فى كاليفورنيا وصفاً دبجه قلم الأديب الانجليزى كرستوفر ايشاروود الذى هجر انجلترا إلى أمريكا فى أول الحرب الأخيرة ونشره فى عدد أكتوبر من « هوريزن » الذى كان مخصصاً لأمريكا والحياة الأسريكية . غير أن هذا الوصف طويل لا نستطيع نقله جميعا ، وإنما نكتفى بأهم

العبارات التى يمكن أن تساعد على تكوين فكرة عن هذا الوصف البديع .

فهو يقول إنه لكى يرى المرء مدينة لوس انجليز فى أسوأ حالاتها يجب أن يكون ذاهباً إليها فى سيارة كبيرة من النوع الذى يستعمل لسياحة عدد كبير من الناس ، ويفضل أن يكون ذلك فى الصيف ، وفى ليلة السبت ، وهذا ما فعله ايشاروود نفسه . فقد جاء إليها منذ ثمانى سنوات بعد أن قطع الأرض الأمريكية من شرقها إلى غربها ، أى من واشنطون مارا بنيوأورليان وألبازو والبوكيرك وفلاجستاف وأريزونا . وبينما كانت السيارة تقطع الخط الحديدى فى نيدلز ، وهو مكان من أحر الأماكن فى العالم خارج بلاد العرب ، أخذت سيدة من السياح نشوة الوطنية ، فبدأت تغنى «هأنذى آتى إليك يا كاليفورنيا !» وفى أمريكا يفعل الناس مثل هذا الأمر بلا مبالاة إذا كانوا فى سفر طويل . فتلك البلاد لا تزال محتفظة بالجو الذى كان يصحب العربة المغطاة التى تجرها الخيل . ومع ذلك كان تأثير غناء السيدة مؤلما ؛ إذ كانت تمتد أمام السائحين صحراء صفراء قذرة ترتعد تحت وهج الشمس ، كأنها النار فى فم أحد الأفران ، على حين ترى هنا وهنالك بين الصخور التى على جانب الطريق هياكل سيارات متروكة قد علاها الصدأ ، وهى النوع الحديث الذى يماثل تلك البغال التى كانت تسقط ميتة من الاعياء زمن المستكشفين القدماء ؛ فكانت السيارة الكبيرة تسير فى أرض ليست أرض ميعاد .

ثم يقول إن مدينة لوس انجليز تعتبر فى داخلها من أحقر مدن الولايات المتحدة . فأكثر البنايات على جانبى الشارع الرئيسى فيها قديمة نسبيا ، ولكن القدم لم يكن رفيقاً عليها ، فهى بنايات بادية الحقارة وبادية القدم كأنها شيخ شرير . وتجد الشوارع الأخرى غاصة بالبحارة والمكسيكيين ، ولكن المدينة خالية من البريق الذى يصحب الموانى ، والسحر الذى يوجد فى المدن المكسيكية . وقد لا تمضى خمس وعشرون سنة ، حتى يهدم هذا القسم من المدينة ويعاد بناؤه ؛ فان لوس انجليز مصرة على أن تصير عاصمة كبيرة بأية وسيلة . فهى اليوم مجرد بلدان وقرى مضمومة بعضها إلى بعض ، وتمتد عريضة بيضاء فى الوادى المائل بين الجبل والمحيط الهادى . وقد اعتاد سكانها أن يقطعوا المسافات البعيدة فى سياراتهم

بين العمل والدار وأماكن التسلية . وليس غريباً أن يقطع الواحد منهم ثمانين ميلا فى اليوم . وأكثرهم يملك الواحد منهم سيارة أو يكون له الحق فى استعمال سيارة ؛ وهى ضرورة لا مجرد مسألة كمالية ؛ لأن وسائل النقل بالسيارات الكبيرة غير منتظمة ، فليس هنالك طريقة غير السيارات الخاصة .

ويقول : إنه يوجد فى تلك المدينة عمارات من جميع أنواع الطراز المعروفة فى الأبنية — فمنها ما هو على الطراز المكسيكى ، ومنها ما هو على الطراز الأسبانى ، ومنها الفرنسى والانجليزى القديم والأمريكى فى زمن الاستعمار واليابانى . ويوجد فضلا عن ذلك ما يبعث على الدهشة المباغتة : فتجد منزلا صغيراً كأنه منزل ساحرة تمتد منه أسلاك وخيوط تكاد تتصل بالأرض ؛ وتجد معبداً مصرياً مزيناً بحروف هيروغليفية ؛ وحصنا صغيراً من حصون القرون الوسطى وقد وضعت عليه المدافع تطل من سطوحه . ولعل السينما هى المسئولة عن وجود هذه الأبنية . وبعض الأبنية ليس له من الثبات والحقيقة الا مظهره ؛ حتى ليتوقع المرء أن تأتى عصابة من النجارين ومعها عربة نقل فتنقل حطام البيت بأكمله فى الليل ، فاذا جاء الصباح لم يجد شيئا .

وفى الشمال من هوليوود تجد سلسلة من التلال القفراء ، وتجد فى وسط المدينة أجزاء لم تكد تسكن ، وفيها حفر عميقة ينمو فيها شجر البلوط وأعشاب مختلفة ، وفيها تجد الأفاعى والغزلان والذئب الأمريكى الصغير . وفى المساء أو فى الصباح الباكر تجد هذه الذئاب تسير جملة فى صف واحد كأنها كلاب ، ثم تجدها فجأة قد اختفت بين الأعشاب فى خفة الحيوان المتوحش .

ويقول : إن بلاد كاليفورنيا هى بلاد محزنة مثل فلسطين وجميع البلاد التى هى أراضى ميعاد ؛ فتاريخها القصير كأنه صحيفة حمى يتبين عليها رسم بعدد المهاجرين ؛ فهنالك الهجوم لامتلاك الأرض ، والهجوم للبحث عن الذهب ، والهجوم للبحث عن البترول ، والهجوم من أجل العمل فى السينما ، والهجوم من أجل زراعة فواكه الأوكى ، والهجوم فى زمن الحرب للعمل فى مصانع الطيران . ويتبع ذلك فى كل نوع من هذه الأنواع هجرة مضادة يقوم بها أولئك الذى أصابهم الاخفاق وخيبة الأمل وهم يتحركون فى حزن عائدين إلى موطنهم . لذلك تجد الكثير من

الناس فى وسط أمريكا وفى شرقها يشعرون بمرارة شديدة وحنق على كاليفورنيا بوجه عام ، وعلى لوس أنجليز بوجه خاص . فهم يجهرون بالشكوى قائلين إن الحياة فيها لا قلب لها ؛ فهى حياة مادية أنانية . ولكن الواقع أن لا حق لهم فى الشكوى ؛ فالذين يذهبون إلى المغرب الأقصى من أمريكا تكون لهم غايات متطرفة ؛ فهم فى أعماق أنفسهم يريدون أن يجدوا شيئاً من لا شئ ، أو يجدوا الكثير دون أن يبذلوا إلا القليل وقد يحدث هذا ، ولكن إذا لم يوفقوا فيجب ألا يلوموا إلا أنفسهم . ولنذكر مثلا واضحاً صناعة السينما ؛ فهى الآن لا تزال كأنها معسكر لاستخراج الذهب ، ولكنها تنظم نفسها فى بطء وصعوبة كى تؤلف هيئة اجتماعية منظمة ومحترمة . ولا شك أن هذا الأمر عمل عنيف . ولا يزال هنالك أثر لفوضى الأيام الماضية ، حين كان كل إنسان يعمل لنفسه والرابح هو الذى يأخذ الثمار . وليس من السهل على الكاتب الذى يكسب ثلاثة آلاف دولار فى الأسبوع أن يتفق مع زميله الذى يكسب مائتين وخمسين دولاراً فقط .

وهو يقول إن الجشع هو أحد القوى التى تهدد أخلاق المهاجرين ، أما القوة الأخرى وهى أشد فتكا فتلك هى الرخاوة والفتور . فهنالك فى الصباح الدائم الكسول على ضفاف المحيط الهادى تمضى الأيام فتصير شهوراً وتمضى الشهور فتصير سنين ، دون أن تجد إلا أبسط الفرق بين الفصول . إن هنالك أمراً واحداً مركزيا هو سطوع الشمس دائماً . وقد يقضى الانسان حياته بين فترتى تثاؤب وهو متمدد عارى الجسد قد لوحته الشمس على الرمال . فالأشجار تحتفظ بخضرتها ، والزهور دائمة النضرة ، والفتيات الجميلات والفتيان الأشداء راكبون دائماً على ظهور الأمواج . وليس الفتيان والفتيات ، والأزهار والأشجار التى تراها هى دائمة لا تتحول ، ولكنك لا تكاد تلحظ تغييرها . فالشيخوخة والموت لا تستديم هنالك كأنما هى غير طبيعية ؛ كتلك الغواصات اليابانية التى كانت تجوس خلال الشاطئ فى زمن الحرب وتغرق السفن أحيانا وهى على مرأى من الأرض . ولا حاجة إلى وصف المقابر المترفة التى كأنها حدائق ، والتى تدعو الزائر إلى العمل للراحة الكبرى ؛ فان ألدس هكسلى قد أبدع فى وصف ذلك فى كتابه : « بعد كل صيف » . على أنه

يحسن أن نذكر بعض الاعلانات التى نجدها هنالك عنها ، فنجد صورة سيدة متقدمة فى السن جذّابة وأنيقة (والمفروض أنهـا ردت إلى الحياة بعد الموت) ، وهى تؤكد للجمهور : « إن مقبرة الغابة هى خير من أى مكان ، وإنى أتكلم عن تجربة » .

ولكى يعيش الانسان عيشة سليمة فى لوس أنجليز (وأظن ذلك ينطبق على كل مدينة أمريكية كبيرة) يجب أن يتقن الانسان فن استدامة اليقظة . فيجب أن يتعلم (فى ثبات وفى غير شدة) مقاومة المقترحات المستمرة التى يريد أن ينيمه بها الراديو والاعلانات والسينما والصحف. تلك الأصوات التى كأنها أصوات الشياطين التى تهمس فى أذنه مملية عليه ما يجب أن يرغب فيه ، وما يجب أن يخشاه ، وما يجب أن يلبسه ، وما يجب أن يأكله ، وما يجب أن يتمتع به وما يجب أن يفكر فيه ويعمله ويكونه ؛ فهى تعد لك الحياة — من المهد إلى اللحد ثم إلى ما بعده — وقد يكون من السهل ، ومن السهل جدا ، أن تقبل ذلك . فان حدث أى تراخ فى الانتباه ، أو إهمال فى التيقظ ، إذا الأجفان تنطبق والعيون تقفل ، والجسد يتحرك طوعا لأوامر المنوم . فاستيقظ ، واستيقظ قبل أن تجد نفسك قد أمضيت عقداً يقيدك سبع سنوات ، أو اشتريت بيتا لا ترغب فيه فى الحقيقة ، أو تزوجت من فتاة تحتقرها فى نفسك . ولا تمتد يدك إلى زجاجة الويسكى ، فانها لا تساعدك ؛ بل يجب أن تفكر وتميز ، وتستعمل إرادتك الحرة وتزن أمورك . وأكرر القول بأنه يجب أن تفعل ذلك وأنت فى هدوء وتعقل . لأنك إذا غضبت على المنومين ، وإذا حطمت الراديو أو مزقت الجريدة إربا إربا ، فانك تكون قد تطرفت إلى الجانب الآخر ، وصرت من أولئك الغريبى الأطوار . وفى هوليوود تجد نوعين من الناس أحدهما على نقيض الآخر : الكاتب السكير الذى يعمل للمحافظة على شهرة اكتسبها منذ عشر سنوات ، والزاهد الذى يعلن عن زهده فى شكل مسرحى ، فيمشى فى الشوارع الكبيرة ، وقد احتذى نعلا ، ولبس سروالا قصيرا ، وأطلق لحيته كالأنبياء ، وهو يردد اللعنة على عصر الآلات !

ظهر حديثا

قطوف للأستاذ عبد العزيز البشرى (دار الكاتب المصرى)

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان ، فيذكرونه كما كانت الخنساء تذكر صخراً أخاها ، وتذوب أنفسهم حسرات كلما ذكروه ، حتى يكاد الحزن ينتهى بهم إلى اليأس ، كما كانت الخنساء تلقى وتشقى كلما ذكرت أخاها صخراً ، وكما صورت الخنساء ذلك أحسن تصوير وأبعده أثراً فى النفوس وأشده وقعاً فى القلوب حين قالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً
وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى
على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن
أسلى النفس عنه بالتأسى

وصنع الله لأهله الذين يذكرونه حين تطلع الشمس وحين تزول وحين تهوى إلى مغربها ، ولأصدقائه الذين يذكرونه فى تلك الساعات التى كانوا يلقونه فيها ، فى ساعات العمل وجه النهار ، وفى ساعات الفراغ من آخر النهار ، وفى تلك الساعات الحلوة من أول الليل حين يتخفف الناس من أعمال النهار وأثقاله ، وحين يرسلون أنفسهم على سجيتها ، فتفرح وتمرح ، وتعبث وتمزح ، وتخوض فى كل فن من فنون القول ، وتجول فى كل ميدان من ميادين التفكير .

فقد كان عبد العزيز رحمه الله أباً براً ، وأخا وفيا ، وصديقا حميما . وكان من أجل هذا كله محببا إلى النفوس ، أثيراً فى القلوب ، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعا .

والشمس تشرق وتغرب فى كل يوم ، والليل يغمر الكون وينجلى عنه فى كل يوم أيضاً ، وفى اختلاف الليل والنهار وفى تتابع الأيام والأشهر والسنين ما يجلو عن النفوس غمراتها ، ويفرج عن القلوب حسراتها ، ويعزى الأحياء عن الأموات ، وينسى الأحياء بعضهم بعضا . ولكنى أعتقد أن اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الأيام

والأشهر والسنين ، وتعاقب الأحداث الجسام والخطوب العظام واشتغال الناس بما يسرهم وما يسوءهم من شؤون الحياة — كل ذلك وأكثر من ذلك ليس من شأنه أن يعزى عن عبد العزيز أهله الأقربين وذوى مودته من الأصدقاء والأخلاء . فقد كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل ، والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الانسان أقله إلا كلف به أشد الكلف وافتتن به أشد الافتتان ، وأصبح لايستطيع له نسيانا ، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف .

وقد عرفت أنا من هذا الطراز قلة قليلة استأثر الله ببعضها ، وأرجو أن يطيل الله بقاء بعضها الآخر . ومن هذه القلة التى آثرها الله بجواره الكريم ثلاثة نفر كانوا أجلاء فيما بينهم ، وكانوا أصدقاء لكل من عرفهم أو اتصلت به أسبابهم من الناس ، وهؤلاء الثلاثة هم : شاعر النيل حافظ إبراهيم، وكاتب النيل عبدالعزيز البشرى ، وطبيب النيل على إبراهيم . كلهم كان عذب النفس ، حلو الروح ، كريم السجية ، مهذب الطبع ، مترف الذوق ، مرهف الحس ، رقيق الشمائل . وهم من أجل ذلك كانوا متوادّين متحابين ، لا يفترفون إلا ليلتقوا . ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آثروا على اجتماع شملهم شيئاً . وكانوا على ذلك أصدقاء للناس جميعاً ، لا يعرفون البغض ولا تطمئن نفوسهم إليه ؛ لأن نفوسهم خلقت من معدن الحب وفطرت على على سجية الاخاء والوفاء وحسن المعاشرة . ولذلك لا أعرف أحداً من الذين عرفوا هؤلاء الثلاثة — وما أكثر من عرفهم ووصل أسبابه بأسبابهم — قد تعلَّق على واحد منهم بكلمة مؤذية أو خطة مؤلة أو عمل يحزن أو يسوء . وإنما نحن نذكرهم جميعا فيمزق الأسى قلوبنا ، وتفرق اللوعة نفوسنا . ولا نكاد نذكرهم مجتمعين أو متفرقين حتى يأخذنا الشجا لفقدهم ، وتبتسم نفوسنا الباكية لما تذكر من أعمالهم وأقوالهم ؛ فهم كانوا ابتساما على ثغر الحياة فى مصر مهما يكن حظ الحياة فى مصر من العبوس والحرج ومن النكر والضيق . وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيئون ،

ولكنهم لم يسيئوا تعمدا للاساءة قط ، ولم يسيئوا إلا كانت إساءتهم مهما تقس فى أول أمرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول .

وكلهم نفع الناس فى حياته كأحسن ما يستطيع الانسان أن ينفع الانسان . وكلهم وجد فى نفع الناس لذة ومتاعا ، ولم يحفل بما جنى الناس عليه ولا بما جرعوه من فنون الألم وضروب الشقاء . كانوا لا يغضبون إلا ليرضوا ، ولا يبتئسون إلا ليبتهجوا ، ولا يعبسون إلا ليبسموا . فطرت نفوسهم على التفاؤل ، أو خلقت نفوسهم من التفاؤل ؛ فلم يعرف التشاؤم إليها سبيلا ، ولم يلق الناس منهم إلا خيرا .

كان حافظ يمتع الناس ويحيى نفوسهم بشعره الرائع . وكان على إبراهيم ينفع الناس ويحيى نفوسهم وأجسامهم بفنه البارع وعلمه الواسع وتفوقه الرفيع . وكان عبد العزيز يسحر قلوب الناس ويستهوى ألبابهم ، ويملك عليهم أمرهم ، وينسيهم صروف الحياة ، ويعزيهم عن آلامها بحضره دون أن يتكلم . فاذا تكلم فقد كان يرقى بهم من عالم إلى عالم وينقلهم من حياة الى حياة . فاذا كتب ونشر فقد كان يأخذ عليهم سبل الاعجاب ، ويضطرهم إلى أن يقرءوا ويقرءوا منفردين قد خلوا إليه دون غيره من الناس . فاذا لقى بعضهم بعضا تحدثوا عما قرءوا ثم أعادوا القراءة ، ثم أخذوا يذهبون من الاعجاب بما يقرءون كل مذهب ، يسلكون من هذا الاعجاب سبل الجد وسبل الفكاهة ، وربما شغلوا أنفسهم بذكر عبد العزيز فى مجلسهم كله حتى يتفرقوا ولم يقضوا منه العجب .

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان ، فيذكرونه مصبحين ويذكرونه ممسين ، لاينسونه ولا يتعزون عنه ، فليس إلى نسيانه أو إلى التعزى عنه سبيل . وأما هذه الكثرة الكثيرة من المثقفين الذين لم يلقوه ولم يستمتعوا بمحضره ، ولم يقولوا له ولم يسمعوا منه ، ولم ينعموا بفكاهته الحلوة ودعابته الرائقة ونادرته الحاضرة ، وإنما سمعوا عنه من بعيد أو قرءوا له بين حين وحين ، فان أمرهم معه كأمرهم مع غيره من الكتاب والشعراء والعلماء ، يستمتعون حين يتاح لهم المتاع ، ويرضون عما استمتعوا به عجلين ، ثم ينصرفون إلى غيره عجلين أيضا ، يطلبون اليهم كثيرا أكثر مما يطيقون ، ولا يعطونهم من أنفسهم إلا قليلا أقل مما يستطيعون .

إن المثقفين جميعا يؤمنون بأن حافظا كان شاعرا فحلا ، وبأن عبد العزيز كان كاتبا ممتازا ، وبأن على إبراهيم كان جراحا متفوقا . قد أقروا ذلك فى أنفسهم ، وسجلوه فى قلوبهم ، وآمنوا به عن علم أو عن غير علم ، ثم لم يزيدوا على ذلك . فكم عدد الذين يطيلون القراءة فيما نظم حافظ ، وما كتب عبد العزيز ، ويطيلون التفكير فيما امتاز به على إبراهيم !

لم يمض ربع قرن على وفاة حافظ ، والناس يعدونه الآن شاعرا من الشعراء البارعين كما يعدون الشعراء القدماء . ولم تمض إلا أعوام قليلة على وفاة عبد العزيز ، والناس يعدونه كاتبا مجيدا كما يعدون غيره من الكتاب القدماء . ولم يدر العام بعد على وفاة على إبراهم والناس يؤمنون له بالتفوق فى الجراحة والطب ثم لا يزيدون على ذلك شيئا .

وقد يكون هذا ملائما لطبيعة الأشياء ؛ فالموت يلغى الزمن بالقياس إلى الموتى . ومن مات مات . وأفهم من هذه الجملة ما تستطيع أن تفهم . مات بالقياس إلى نفسه ، ومات بالقياس إلى أكثر الناس ، وربما مات إلى أشد الناس اتصالا به وقربا منه . مات ولم تبق منه إلا هذه الذكرى التى تظل مضطرمة متأججة فى بعض القلوب حتى تخمد حين تكف هذه القلوب عن الخفقان ، وتظل فى سائر القلوب أشبه شىء بهذه الأسماء التى تكتب على اللافتات ، ينظر الناس إليها أحيانا ، ويمرون بها معرضين عنها فى أكثر الأحيان . لا يتعمدون النظر إليها إلا إن احتاجوا إليها ليستعينوا بها على التماس ما يبتغون من طريق . فالذين يؤرخون الأدب الحديث سيتعمدون تذكر حافظ وعبد العزيز وإطالة التفكير فيهما . والذين يؤرخون الجراحة الحديثة سيتعمدون تذكر على إبراهيم وإطالة الوقوف عنده . وأولئك وهؤلاء سيقفون عند هؤلاء الأشخاص كما يقف المتجول فى مدينة القاهرة عند هذه اللافتة أو تلك ليتبين طريقه إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها .

ولست أدرى أخير هذا أم شر ، ولكنى أعلم أنه الحقيقة الواقعة من جهة ، وأكاد أعتقد أنه العقوق ، وأن هذا النوع من العقوق قد ركب فى طبائع الناس ، فهم يسرعون إلى نسيان من أحسن إليهم ، وهم يضيعون على أنفسهم بهذا النسيان منافع كثيرة ومتاعاً عظيما . وآية ذلك أنك تقرأ

الأثر القديم الذى مضت عليه القرون الطوال من آثار الأدباء والعلماء ، فتجد اللذة كل اللذة والنعم كل النعم ، وترثى للذين لم يقرءوا هذا الأثر من هذه الأجيال التى لاتحصى ؛ لأنهم لم يقرءوه ولم يستمتعوا به .

فالذين لا يقرءون اليوم حافظا ولا عبد العزيز قد دفعوا إلى هذا العقوق الذى ركب فى طبيعة الناس ، فأضاعوا على أنفسهم شيئا كثيرا ، ما أجدرهم ، لو أحسنوا التفكير والتقدير ، أن يستدركوه ولا يفرطوا فيه .

وقد كنت من المفتونين بحديث عبد العزيز حين يتحدث ، ومن المفتونين بآثاره حين يكتب . وقد توسلت إليه حين أزمع نشر « المختار » أن يأذن لى بتقديمه إلى الناس . وشهد الله ما تكلفت ولا تزيّدت ، وشهد الله ما جاملت وما صانعت ، وإنما علمت فقلت بعض ما علمت ، ورضيت فقلت أيسر ما يوجبه الرضا .

وإنى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى وكنا نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى لنقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والأصول . ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه كما تنسل الشعرة من العجين ، ودون أن يلقى كيدا . وأقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ، ونزعم لأنفسنا أننا كنا نغذو به العقول والقلوب . وإنى لأرانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد أن تصلّى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد ، نحصّل بهذه القراءة الأدب كما كنا نحصل البلاغة والأصول بقراءة الضحى . وكان مزاح عبد العزيز وتندره يصرفاننا عن هذا التحصيل كما كانا يصرفاننا عن ذاك . ثم لم يلبث أن انسل من هذا التحصيل كما تنسل الشعرة من العجين ودون أن يلقى كيدا . ذلك لأنه ، رحمه الله ، كان أقل الناس حباً للاستقرار وميلا إلى الامعان فى طريق واحدة . فطر على حب التنقل ، على حب التنقل المادى والمعنوى جميعاً . فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة فى الأزهر أو قريباً منه ، فاذا صليت الظهر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق .

فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من هذه القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية . فاذا صليت العشاء الآخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه عند آل عبد الرازق فى عابدين ، وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة والجاه ، وقد تلقاه فى قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء صدرهم حافظ إبراهيم رحمه الله . كل ذلك حين كنا طلاباً قبل أن تشب الحرب العالمية الأولى ، وقبل أن تتغير الدنيا ويتحضر هذا الجيل من أجيال المصريين بعد انقضاء الحرب الأولى وشبوب الثورة الوطنية واشتجار الخلاف بين السعديين والعدليين ، وانتقال مركز النشاط لهذا الجيل إلى مكان آخر من مدينة القاهرة . فكنت ترى عبد العزيز فى ذلك الوقت فى « بار اللواء » أثناء الأصيل ، وفى « الكافيه ريش » حين يقبل الليل ، وفى الأهرام أو غير الأهرام من دور الصحف حين يتقدم الليل . وربما رأيته أثناء النهار أو أثناء الليل عند هذا العظيم أو ذاك من عظماء العدليين .

ثم تتغير الدنيا مرة أخرى ويأتلف المختلفون ويتفق المختصمون فاذا عبد العزيز يغشى مجالس السعديين وأنديتهم كما كان يغشى مجالس العدليين وأنديتهم . ولكنه على كل هذا التنقل وعلى كل هذا الاضطراب بين أحياء القاهرة كان يثبت على مكان واحد يختلف إليه مهما تكن الظروف والأحداث ليلقى فيه على إبراهيم وأصحابه ساعة من ليل .

وفطرت نفسه على حب التنقل المعنوى ، فكان يشارك فى علوم الأزهر طائعاً أو كارهاً . وماذا يصنع وهو ابن شيخ الاسلام وقد سلكه أبوه رحمه الله مع الأزهريين فى نظام واحد وكان يشارك فى أدب القدماء وفى أدب المحدثين وكان يلم بالأدب الأجنبى إلماماً قصيراً من بعيد . وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها أطرافا ويتندر بها فى حديثه العذب . وكان قد أدمن قراءة « الأغانى » ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة وآثر فى حديثه جزالة اللفظ ، وأعانه صوته المتين الملىء على التضخيم والتفخيم والترصين . وكان من أروع ما يروعك حين تسمع إليه متحدثا بلغة الجاحظ وأبى الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد انزلقت بين هذا الكلام

العربى الرصين المتين من حيث لا تدرى أنت ولا يدرى هو .

ثم يريد الله أن تعدو العوادى ، وأن تدلهم الخطوب ، وأن نفقد عبد العزيز على غير توقع لفقده ، وإذا نحن نحرم هذا المتاع الغريب النادر الذى كنا نجده حين نتحدث إليه ونستمع له وإذا نحن مضطرون إلى أن نستحضر حديثه بقراءة ما ترك لنا من الآثار ، نقرأ ويخيل إلينا أننا نسمعه يتحدث ، فنجد ذلك مزاجا غريبا من اللذة الأليمة والسرور الحزين .

ثم يتحدث إلىّ أحد أصدقائى ذات يوم بأن لعبد العزيز آثاراً لم تجمع فى كتاب ، نشر بعضها فى المجلات وأذيع بعضها فى « الراديو » وأعد بعضها للنشر أو للاذاعة ، وكان عبد العزيز يهيئها كلها لتجمع فى سفر أو سفرين ، فأعجله الموت عن ذلك . فلا أكاد أسمع هذا النبأ حتى ألح على صديقى فى أن يصل الأسباب بينى وبين هذه القطوف ، فيتاح لى ذلك . فلا أقرأ ولا أستقصى ، وإنما أزمع نشر هذه الفصول وفاء بما لهذا الأديب العظيم من حق ، ورعاية لما لهذا الصديق الكريم من حرمة .

لا أقرأ ولا أستقصى إجلالا لآثار عبد العزيز أن تقرأ أو تستقصى قبل أن تقدم إلى المطبعة ؛ فقد كان راضيا عنها ، وهذا يكفى . تطبع هذه القطوف وترسل إلىّ فى فرنسا ، فأخلو إليها فى هذه القرية النائية من قرى الجبل أياما ، فلا أشك فى أنى لم أخطىء حين وثقت برأى عبد العزيز فى قطوفه ؛ فهى الأدب كل الأدب ، وهى الفن كل الفن ، وهى الكلام الذى يجمع إلى رصانة الأدب القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته . وهى على ذلك كله إذا ضمت إلى ما جمع من آثار عبد العزيز صورة فذة لا نظير لها فى الأدب المعاصر . فهى فصل مستقل من تاريخنا الأدبى يصوّر لوناً من ألوان هذا التاريخ لا نجده عند كاتب آخر من كتابنا المعاصرين ، لا أكاد أستثنى منهم إلا صديقنا المازنى .

فعبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفا على حياتنا المصرية ، وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص . وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها ، وأشدهم تمثلا لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت دمه ، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع

قلمه حين كان يكتب . فهى أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى عصر الانتقال . وقد كان عبد العزيز رحمه الله يحب أن يصور المعاصرين ويجلو صورهم فى فصول رائعة كانت تنشر بعنوان « فى المرآة » ثم جمعت بعد ذلك فى سفر أرجو ألا يكون قد انقطع من أيدى الناس .

فاقرأ « قطوفه » هذه ، فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق ، لاتعكس صورة فرد من الأفراد ، وإنما تعكس صورة بيئة من البيئات ، أو جماعة من الجماعات ، أو لون من ألوان التفكير المصرى ، أو فن من فنون السيرة المصرية فى هذا الطور أو ذاك من أطوار الحياة . فاذا فرغت من قراءة هذه « القطوف » فقد استقرت فى نفسك صورة كاملة شاملة دقيقة لحياة مصرية ذهب أكثرها وبقى أقلها ، ولحياة مصرية جديدة ناشئة لم يتم تكوينها بعد ، ولكن عبد العزيز سبق بذكائه النافذ وملاحظته الدقيقة إلى التنبؤ بحقائقها و بما سيختلف عليها من الأطوار .

وكنت أقدر أن رعاية حرمة الأدب والوفاء بحق الصديق هما اللذان قد دفعانى إلى نشر هذا السفر ، فاذا أنا أقرأ ثم لا أشك فى أنى قد أهديت بنشره طرفة من أقوم الطرف وأشدها إمتاعا إلى المثقفين من قراء العربية عامة وإلى الشباب منهم خاصة . فما أعرف أن كاتباً من الكتاب المعاصرين أتيح له من التوفيق مثل ما أتيح لعبد العزيز فى هذه الفصول التى تسجل من من حياتنا ما كاد يضيع ، وتسجله فى أروع لفظ وأبرعه وأجزله وأمثله ، وما أشك فى أن كثيراً من هذه القطوف لو ترجم إلى بعض اللغات الأوربية لفتن به كثير من أهل الغرب فتونا .

ولو علمت أنى أستطيع أن أشير على وزارة المعارف فتسمع منى وتقبل مشورتى لأشرت عليها فى أن تجعل كتب عبد العزيز البشرى ، وهذا الكتاب منها خاصة ، بين الكتب التى تدرس فى المدارس الثانوية ؛ فما أعرف أقدر منه على تحبيب الأدب العربى إلى الشباب وتزيينه فى قلوبهم ، وإقناعهم بأن لغتنا الفصيحة القديمة تستطيع أن تؤدى من المعانى والأغراض ما تقتضيه الحياة الحديثة دون أن يمسها من ذلك نصب أو لغوب .

رحم الله عبد العزيز ، وهيأ

للأدب العربى من يقوم مقامه . ولولا الثقة بالله لقلت كما قال الحجاف فى العصر القديم : « وما أراه يفعل » . ولكن قدرة الله وسعت كل شئ ، ورحمته وسعت كل إنسان ؛ فليعوض الله من عبد العزيز خيراً ، وليسبغ الله على عبد العزيز رحمة ونعمة وثوابا .

كتاب السياسة لأرسطاطاليس ترجمة الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا

(لجنة التأليف والترجمة والنشر)

أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا ، داعية أرسطاطاليس فى الشرق الحديث ، كما قال صديقنا الدكتور محمد كامل حسين بك. ولكنه داعية الفلسفة بوجه عام ، والفلسفة السياسية خاصة قبل أن يكون داعية لأرسطاطاليس . عرفنا ذلك منذ عرفناه فى أوائل هذا القرن حين كنا نختلف إليه مع أترابنا فى الجريدة ، فنسمع منه أحاديث كانت تقع من نفوسنا أغرب المواقع وأشدها إيثارة لحب الاستطلاع . فقد كنا نسمع منه أسماء غريبة لم يكن المعممون يسمعونها فى الأزهر ، ولم يكن المطربشون يسمعونها فى مدارسهم الثانوية والعالية . كنا نسمع أسماء مونتسكيو وفولتير ، وجان جاك روسو ، وديدرو ، وإيمانويل كانت ، وأوجوست كونت ، وستيوارت مل ، وجول سيمون ، وسبنسر . وربما سمعنا منه أسماء ديكارت ، وليبنتز ، ومالبرانش ، وسبينوزا . وكانت هذه الأسماء تثير فى نفوسنا عجبا وإعجاباً فى وقت واحد . كانت تثير العجب لوجود طوائف من العلماء والفلاسفة لم يكن يخطر لنا وجودهم على بال ، ولوجود ألوان من العلم والفلسفة لم نكن نقدر أن وجودها شئ ممكن أو معقول . فقد كنا نحسب أن العلم كله فى الأزهر أو أن العلم كله فى المدارس المدنية ، فاذا هذا الرجل الساحر يظهر لنا أن الأزهر والمدارس والمعاهد العالية لم تكن تعلمنا من العلم إلا أقله وأيسره ، ويفتح لنا آفاقا ما كنا نقدر أنها ستفتح لنا فى يوم من الأيام .

وقد أحس إقبالنا على هذه الألوان من المعرفة ، وعجزنا عن أن

نبلغ حاجاتنا منها ؛ فأزمع أن يعلمنا من ذلك ما لم نكن نتعلم فى الأزهر والمدارس ، وسلك إلى تعليمنا طريقين : إحداهما طريق الأحاديث والحوار ، كما كان سقراط يعلم شباب الآتينيين ، والمحاضرات المنظمة التى كان يلقيها هو أو يلقيها بعض أصحابه من الكبار حين يقبل المساء ، فى موضوعات بعينها تمس فلسفة السياسة ونظم الحكم . والطريق الأخرى هى الطريق الحديثة التى يسلكها العلماء المعاصرون إلى تثقيف الشباب وتمرينهم . فقد كان يتخير الذين يحسنون اللغة الفرنسية أو الانجليزية ، ويعطيهم بعض الكتب اليسيرة ويكلفهم أن يحاولوا ترجمتها وأن يظهروه على نتائج هذه المحاولة بين حين وحين . بحيث كانت الجريدة فى أول النهار وفى أول الليل إرهاصا بالجامعة قبل أن تنشأ الجامعة ، و بكلية الآداب قبل أن توجد كلية الآداب .

وكان أحمد لطفى السيد قد اتصل منذ شبابه الأول بالأستاذين الامامين جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده . واتصل كذلك بآخرين من شيوخ الأزهر المتازين ، فدفعه هذا الاتصال إلى أن يعنى بالفلسفة الاسلامية ، ويقرأ المنطق والكلام ، وما بعد الطبيعة ، ويتحدث إلى الأزهريين بلغة الأزهر ، وإلى المثقفين المدنيين بلغة الثقافة المدنية . ولعل الذين يحققون تاريخ الأدب العربى فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن ، ينتهون إلى أن لطفى السيد هو الذى وفق للملاءمة الرائعة بين لغتى هاتين الثقافتين . فقد كنا نحن الأزهريين نكاد نطير فرحاً حين كنا نسمع منه ألفاظ الجنس والفصل والخاصة والقول الشارح ، والجوهر ، والعرض ، والمقولات ، نجد فى ذلك شيئاً من الأنس إلى هذا المطربش المترف لم نكن نجده عند غيره من المطربشين المترفين . كنا نأنس إليه حين يحدثنا بلغتنا ونعجب به حين يحدثنا بلغة الثقافة الأوربية . وكان أترابنا من شباب المدارس يأنسون إليه حين يحدثهم بلغة الثقافة الحديثة ، ويعجبون به حين يحدثهم بلغة الأزهر ، وكنا نلتقى جميعاً فى الاعجاب به والأنس إليه .

وقد كنا نحن الأزهريين نعرف اسم أرسطاطاليس لكثرة ما كنا نسمعه فى دروس المنطق والفلسفة والتوحيد . ولكنا لم نكن نعرف من أرسطاطاليس إلا أنه فيلسوف يونانى يحسن الكلام عن الهيولى والصورة ، وعن الجوهر والعرض ، وعن الموجود والمعلوم ، وعن الحد والرسم والقياس .

وإذا لطفى السيد يظهرنا على أن أرسطاطاليس هذا يحسن أشياء أخرى كنا نفتن بها فى ذلك الوقت أشد الفتنة ، وهى الأخلاق والسياسة . وقد فتنتنا سياسة أرسطاطاليس فتنة لم نجد مثلها بالقياس إلى الأخلاق . فقد كنا نسمع حديث الأخلاق فى الأزهر ، وكان الممتازون منا يقرءون كتاب ابن مسكويه ، فأما السياسة فشئ لم نفكر فيه ولم يخطر لنا على بال ، بل كنا إذا سمعنا لفظ السياسة تصورنا معنى غامضا من هذه المعانى الغامضة التى كان العلم بها مقصورا على فريق قليل جدا من الخاصة بل من خاصة الخاصة .

ولم يكن شئ يخلب ألبابنا كما كانت تخلبها ألفاظ الديمقراطية والأرستقراطية والايلوجاركية ؛ فقد كانت هذه الألفاظ تقع من آذاننا مواقع شاذة غريبة ، وتنزل من نفوسنا منازل الشغف والحب ، وكنا نجد شيئا من الصعوبة فى النطق بها على وجهها ، وكثيرا من العذوبة فى النطق بها مصححة أو محرفة . وكنا ربما تشدقنا بهذه الألفاظ فى بيئاتنا الأزهرية الخاصة ، نظهر لزملائنا أنا نحسن من العلم ما لم يعلموا ، ونلقى من لا يتاح لهم لتاؤهم من الناس . وكنا على ذلك نكلف أشد الكلف بأن نعلم علم أرسطاطاليس هذا وأصحابه الذين كنا نسمع أسماءهم فى الجريدة من الفرنسيين والانجليز والألمان . ثم تمضى الأيام ، ويتفرق هؤلاء الشبات عن أستاذهم ، وتختلف بهم مذاهب الحياة متباعدة حينا ومتقاربة أحيانا ، حتى إذا انجلت غمرة الحرب العالمية الأولى ، عاد كثير من هؤلاء الشباب إلى لقاء أستاذهم فاستمعوا له وتحدثوا إليه ، وإذا هو لم ينس أرطاطاليس ولم يعرض عنه ، وإنما ازداد به كلفا وله معاشرة وعليه عكوفا . فهو لا يكتفى بالتحدث عن أرسطاطاليس إلى أصحابه وتلاميذه ، وإنما هو يعكف على ترجمة أرسطاطاليس يترجمه لنفسه أولا ؛ فهو يجد اللذة كل اللذة فى الخلوة إلى هذا الفيلسوف العظيم . ويترجمه للمثقفين ثانياً ؛ فهو أبعد الناس عن الأثرة وأشدهم ترفعاً عن اختصاص نفسه بما يمتع القلوب والعقول . وهو مؤمن بعد ذلك بأن النهضة العربية الحديثة لن تستقيم لها الطريق ولن تبلغ غايتها إلا إذا اعتمدت على نفس الأسس التى اعتمدت عليها النهضة العربية القديمة ، وهى الثقافات الأجنبية التى يسيغها المثقفون إلى ما أساغوا من التراث العربى الخالص ،

ويصنعون منها ومن هذا التراث مزاجا معتدلا يغذون به الأجيال التى تأتى بعدهم من الناس . وإلا إذا قامت على نفس الأسس التى قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة ، وهى الرجوع بحياة العقل إلى أصولها الأولى ، ووصل ما انقطع من الأسباب بين التفكير الحديث والتفكير القديم . وهو مؤمن بعد هذا وذاك بأن للغة العربية على أبنائها حقوقاً يجب أن تؤدى ، وحرمات يجب أن ترعى . وأهم هذه الحقوق والحرمات أن تغنى هذه اللغة بعد فقر ، وتخصب بعد جدب ، وترقى بعد انحطاط . وسبيل ذلك أن تعى كل ما وعته اللغات الراقية الكبرى من ضروب العلم والأدب والفلسفة ، بحيث لا يقع شىء من ذلك موقع الغرابة والشذوذ من الذين يحسنون هذه اللغة ولا يحسنون غيرها من اللغات . وكان يحدثنا بأن من الاسراف الشديد على الناس أن نكلفهم جميعاً درس اللغات الأجنبية والتصرف فيها قديمها وحديثها ، ليظهروا على ما أنشىء فيها من الآثار ، وأن من الظلم الشديد للناس ألا تيسر لهم وسائل العلم بما تنتجه العقول على اختلاف العصور من ضروب المعرفة وفنون الثقافة . وكان يحدثنا بأن القدماء من المسلمين قد فطنوا لهذا كله ، فأدوا إلى اللغة حقها وأدوا إلى أصحاب اللغة حقوقهم ، ونقلوا من ثقافات العالم القديم ما استطاعوا أن ينقلوا ؛ فما ينبغى للمحدثين أن يقصروا فيما لم يقصر فيه القدماء . وكان يتقدم إلينا فى أن يترجم كل منا ما يستطيع ترجمته من اللغة الأجنبية التى يحسنها إلى اللغة العربية ، ثم يقول فى تواضع مبتسم : أما أنا فموكل بسيدنا أرسطاطاليس .

وأحمد لطفى السيد باشا رجل وفىّ لسيدنا أرسطاطاليس هذا ، لم تشغله عنه الشواغل مهما تكن ومهما تختلف : صحبه فى باريس حين أقام مع الوفد فى باريس ، واستراح إليه بعد عودته إلى القاهرة من لغط الحياة السياسية ومن خطوب المناصب العامة التى وليها . لم تصرفه عن أرسطاطاليس إدارة دار الكتب المصرية ولا إدارة الجامعة ولا الوزارات المختلفة التى نهض بأعبائها ولا عضويته لمجلس الشيوخ ولا رياسته لمجمع فؤاد الأول للغة العربية . وإنما كان يستريح من هذه الأعباء كلها إلى أرسطاطاليس وربما استعان على هذه الأعباء كلها بأرسطاطاليس . وهو من أجل ذلك قد أخرج من كتب أرسطاطاليس

أجلها خطراً وأعظمها شأناً وأبقاها أثراً : أخرج الأخلاق ، والطبيعة والكون والفساد ، وهو الآن يخرج السياسة . ومن يدرى ما الذى يحاول أن يخرج بعد أن فرغ من ترجمة السياسة ؟ وقد رأيته فى الصيف الماضى يحاول أن يؤلف من حوله جماعة من شباب الفلاسفة المصريين ليعيد معهم النظر فيما ترجم المسلمون القدماء من منطق أرسطاطاليس .

وأحمد لطفى باشا يعلم — ولا يخفى — أن أقوم الترجمة ما نقل عن الأصل مباشرة . ولكنه يعلم أن العرب قد نقلت لهم آثار اليونان من طريق السريانية لقلة الذين كانوا يحسنون اليونانية أيام العباسيين ، وأن الذين كانوا يحسنون اليونانية حين بدأ هو بترجمة أرسطاطاليس كانوا لا يوجدون إلا فى الوهم والأمل . فلم يكن من الممكن ولا من المعقول أن ينتظر بترجمة أرسطاطاليس حتى يوجد الشباب الذين يحسنون اليونانية ويحاولون الترجمة منها مباشرة . وهو يرى أن شيئاً خير من لا شئ ، وأن ما وسع المسلمين فى العصر العباسى ، والأوربيين فى القرون الوسطى ، يمكن أن يسع الشرقيين المحدثين فى هذه الأيام .

وقد أنفق لطفى باشا جهوداً عظيمة موفقة ، يحفظها له التاريخ الجامعى المصرى ، فى إعداد جيل من الشباب يحسنون من اليونانية واللاتينية ما لم يحسن القدماء . وهو يرى الآن هؤلاء الشباب يستقبلون نشاطهم الخصب ، فيشعره ذلك رضا واغتباطا ، ولكنه لا يمنعه من المضى فيما استأنف من ترجمة أرسطاطاليس على النحو الذى ألفه . وما أشك فى أنه سيكون أشد الناس تشجيعاً لمن يريد من الشباب أن يترجم كتب أرسطاطاليس هذه من اليونانية ترجمة مباشرة . والشئ المحقق هو أن هذه الكتب التى ترجمها ، وهى من أقوم الآثار التى تركها أرسطاطاليس إن لم تكن أقومها . قد أصبحت الآن بفضل لطفى باشا ، قريبة المتناول من الذين يستطيعون أن يقرءوها فى أصلها اليونانى أو فى تراجمها إلى اللغات الأوربية الحديثة . والشئ المحقق أيضاً ، هو أن أستاذنا لطفى باشا السيد ، وأستاذنا عبد العزيز باشا فهمى ، يعلِّماننا ويعلمان الأجيال الناشئة من الشباب كيف يكون الاخلاص فى ذات الثقافة ، والنهوض باعباء المعرفة ، والتوفر على ما ينفع الناس ، فى غير ضجيج ولا عجيج ولا إعلان ، بل فى غير شعور بأنهما يتكلفان جهداً عنيفاً

لم يتعـود أمثـالها أن يتكلفوه .

وما أحب أن أسوء أحداً ، وما أحب أن أغيظ أحداً ، وما أحب أن أسر هـذين الأستاذين الجليلين ، وإنما أحب أن أقول الحق ؛ لأن الحق يجب أن يقال مهما تكن الظروف . والحق الذى أريد أن أقوله هو أن لهذين الأستاذين العظيمين مكانة ممتازة بين أمثالهما من أصحاب المكانة الرفيعة فى مصر ، هؤلاء الذين يعنون بالسياسة والمال والاقتصاد ، ويستريحون من هـذا كله إلى الفراغ ولهو الحديث ، والاكتفـاء بأنهم أصحـاب التفوق فى السياسة والمال والاقتصاد ، ثم يتركون هذه الدنيا بعد أعمار أرجو أن يمد الله فيها ، فيذكر الناس أنهم كانوا من أصحاب السياسة والمال والاقتصاد ، ثم لا يزيدون على ذلك شيئاً .

أما هذان الأستاذان الجليلان ، فقد شاركا أمثالهما فيما يضطربون فيه من شؤون الحياة العامة ، ولكن أحدهما يفرغ لترجمة أرسطاطاليس ، والآخر يفرغ لترجمة جوستينيان .

ولله الأعشى حين قال :

شتان مايومى على كورها
ويوم حيـان أخى جابر

وكتاب السيـاسة لأرسطاطاليس ليس فى حاجة الآن إلى أن نفصل القول فيه أو نجمله ؛ فقد تغيرت حياة الناس منذ أول هذا القرن ، وعرف المثقفون ما لم نكن نعرف فى ذلك الوقت ، فأصبحوا فى غير حاجة إلى أن نعلمهم معنى السياسة كما يتصورها الفـلاسفـة ، ولا أن ننبئهم بأن أرسطاطاليس قد وضع فى علم السياسة وفلسفتها كتاباً خالداً فتح للانسانية آفاقا ومهد لها طرقاً ما زالت تسعى فيها الآن ، وأن هذا الكتاب قد بلغ من العمر أربعة وعشرين قرنا ، ولكنه على ذلك مازال شابًّا مكتمل الشباب ، لايقبل عالم أو فيلسوف أو مؤرخ على السياسة أو على علم الاجتماع إلا بدأ بالخلوة إليه والنظر فيه .

وكل هذه حقائق كنا نحن نجهلها فى أول الشباب ، وأصبحت بفضل لطفى السيد باشا من الأوليات التى يعرفها المثقفون من الجامعيين وغير الجامعيين. فلست فى حاجة اذن إلى أن أجمل القول فى كتاب السياسة أو أفصله ، ولا إلى أن أبين الصلة بين كتاب السياسة وما سبق اليونان إليـه فى حياتهم العاملة والمفكرة قبل أرسطاطاليس ، ولا أن أبين تأثير كتاب السياسة فيما كتب الفلاسفة والعلماء والمؤرخون وأصحاب الاجتماع إلى الآن بعد أرسطاطاليس

لست فى حاجة إلى شئ من ذلك ، وإنما أنا فى حاجة أى حاجة إلى أن أنبه الشباب من المثقفين إلى هذه القدوة الصالحة التى يقدمها هذان الأستاذان العظيمان . وفى حاجة أى حاجة إلى أن ألحّ على الشباب فى أن يقرءوا ترجمة لطفى السيد باشا لأرسطاطاليس ، وترجمة عبد العزيز فهمى باشا لجوستينيان . وفى حاجة أى حاجة إلى أن ألح على وزارة المعارف فى أن تأخذ أساتذتها وطلابها بالنظر فى هذه التراجم ، وفى أن تأخذ أساتذتها خاصة بتعليم طلابهم كيف ينظرون فى هذه التراجم ، وكيف يوازنون بينها وبين أصولها ، وكيف يتأسون بهذين الأستاذين العظيمين من أساتذة هذا الجيل ، وكيف يعرفون لها حقهما على الشباب وفضلهما على الثقافة ، وكيف يكونون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ويرون المثل الصالحة فيجدون التأثر والاقتداء .

ط حسين

في مجلات الشرق

من تونس

الثريا العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٤٦)

يتحدث الأستاذ عثمان الكعاك عن « عصر الموسوعات » فى الحضارة التونسية ، فبعد أن يتحدث عن الموسوعة ما هى ، ويضرب لها الأمثلة مما يعرف قراؤه ، كمفاتيح العلوم للخوارزمى ، ونهاية الأرب للنويرى — يخلص للحديث عما يسميه عصر الموسوعات فى تونس ، ويعنى به القرنين السابع والثامن بعد الهجرة ؛ « لأنهما القرنان اللذان ألف فيهما التونسيون الموسوعات الجليلة ، ودوائر المعارف الفخمة ، والمعالم المعتبرة » ويشبههما بالقرن الثامن عشر الميلادى عند الفرنسيين .

ثم يقسم العلوم التى ألف فيها التونسيون الموسوعات فى ذلك العصر بصفة عامة — أربعة أقسام :

١ — العلوم الدينية ، ويمثلها « إكمال المعلم لفوائد كتاب مسلم » تأليف الامام أبى عبد الله محمد الأبى التونسى . وهو شرح على صحيح مسلم ، ويعده الكاتب بما اجتمع فيه من الفوائد ، دائرة معارف فى الحديث .

٢ — العلوم اللسانية ، ويمثلها « لسان العرب » تأليف جمال الدين ابن منظور « القفصى » ويراه بما جمع من الشواهد والآيات والأحاديث والأشعار ، أكبر دائرة معارف لغوية عند العرب ، بل فى العالم .

٣ — العلوم الأدبية والتاريخية ، وقد عنى بها فى هذا العصر — على الأقل — ثلاثة رجال من التونسيين ، هم : محمد بن الأبار ، ونور الدين بن سعيد المغربى ، وابن خلدون . أما أولهم فله مما يعد من الموسوعات :

(١) الحلة السيراء ، وفيه تراجم الشعراء من أعيان الأندلس والمغرب من المائة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة ، وقد نشرت

منتخبات من هذه الموسوعة بعناية المستشرق الهولاندى دوزى بليدن فى سنة ١٨٤٧ .

(ب) كتاب التكملة فى تاريخ أئمة الأندلس ، ويعتبر من أمهات كتب التاريخ الأندلسى .

(ج) المعجم ، وهو موسوعة فى التراجم ذات أهمية .

وأما ثانيهم ، فله موسوعتان كبيرتان فى تاريخ المغرب ، هما :

(ا) المغرب فى حلى المغرب ، فى خمسة عشر مجلدا .

(ب) المشرق فى حلى المشرق ، وقد ذكر القالى أنه (كان) فى ستين مجلدا.

وأما ثالثهم عبد الرحمن بن خلدون فلم يكن مؤرخا وحسب ، بل كان واضع علم الاجتماع وعلم النقد التاريخى وعلم الاقتصاد السياسى وعلم الاحصائيات حسبما يتضح ذلك من دراسة « المقدمة » .

من لبنان

الاديب العدد الحادى عشر (نوفمبر ١٩٤٧)

يتحدث الأديب قدرى قلعجى عن « حقوق المثقفين » فيقول :

« منذ سنوات عدة نتحدث عن واجبات المثقفين العرب ، وأحسب أنه قد أزف الوقت لأن نتحدث عن حقوق المثقفين العرب أيضا . فلئن كان التنبيه إلى واجباتهم ضروريا لأن الطابع الذى كان يميزهم هو طابع الانعزال عن مشاكل المجتمع العربى ، فان التنبيه إلى حقوقهم لا يقل عن ذلك ضرورة فى بلاد لا يتمتع الفكر فيها بالاحترام الذى ينبغى له ، وقد خضعت حرية العمل الفكرى على صعيدها لنير الحكام المستبدين زمنا طويلا . . . وظلت يد السياسة الرعناء منذ عهد هولاكو إلى عهد عبد الحميد إلى عهدنا هذا ، تحطم دائما أجنحة الثقافة وتقعد بها عن التحليق إلى الذرى التى تطمح إليها ، حتى اضطر أكثر المفكرين إلى التماس الحرية فى المهاجر ، وبقى الآخرون يجاهدون على أرض الوطن أو يدفنوا مواهبهم فى ترابه ...

« إن شدة توكيدنا على واجبات المثقفين قد أوهمت بعض السياسيين

أن رجال الفكر يجب أن يكونوا مجرد دواليب عمياء فى عجلة المتزعمين من رجال السياسة . وقد بلغ من استهانة هؤلاء بقيمة الفكر — وهو أجمل ما أنجبه التطور البشرى وأنبل ما تعتز به أمة على أمة — أن الرجل منهم لم يعد يهمه إلا أن يحشر حوله جمهوراً من الأنصار يصفق له ، وقل بينهم من يحيط نفسه بالمفكرين الصادقين الذين يساعدونه على السير سيرة هادية مهدية . . . »

وبعد أن يصف الكاتب بعض ما يلقاه المفكرون الأحرار من عنت السياسيين والحكام ، يقول :

« فى هذه الأيام ، التى يطل فيها على بلادنا فجر حياة حرة جديدة ، يأتى دور المفكرين العرب الواعين المستنيرين فى الطليعة . إن التاريخ هو الذى يدعوهم إلى هذا المكان كى يحتلوه بجدارة وحق ؛ إذ عليهم فى الدرجة الأولى يتوقف نهوض أمتنا إلى المصاف التى تطمح إليها . وإن جماهير الشعب المتيقظة هى التى ينبغى لها أن تسهم بالقسط الأوفر لبلوغ المفكرين ذلك المكان الخليق بهم . فهل لهذه الجماهير أن تعرف للمفكرين حقوقهم حتى يستطيعوا أداء واجباتهم على أحسن وجه ؟ »

العروبة الجزء الثامن (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث الشاعر النائب أمين نخلة عن جديد الشعر وقديمه فى مقال عنوانه « فى تعريف الشعر » فيقول :

« لا دخل للزمن فى قضية الشعر ، ففى الشعر لاجديد ولا قديم ، المدار على الاجادة ، وما عداها عبث لا طائل تحته ! نعم لا ينكر تأثير الارتقاء ، واتساع الاختراع ، وانفساح المعارف ، وإتقان الآلات والأدوات ؛ ولكن ذلك يمس أصباغ الشعر المتحولة ولا يفضى إلى حقائقه ، لعلاقة الأولى بعصر دون عصر ، وسلالة دون سلالة ؛ وعلاقة الأخرى بالعصور جميعاً وبالبشر قاطبة . أضف أن الشعر مرآة الحياة كما قد قيل ، وهذه الحياة الدنيا لا تتحول حقائقها بمقدم قادم عليها وذهاب ذاهب عنها ، ولا بأحوال وأفعال أخرى مما يعرض ألفة الناس وتقلبهم ، فيكون شرط الجودة بالشعر بشريا عاما لا عصريا خاصا ، ويكون تأثير الترقيات الاجتماعية فى الصبغ الزائل لا فى الجوهر الباقى » .

الطريق الجزء العاشر (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث المحرر عن الشعب الأوزبكى فى ظل النظام الاشتراكى ، فيقول :

« برز فى صفوف الشعب الأوزبكى عدد من مشاهير الأدباء والعلماء ، أمثال الخوارزمى الذى وضع أول قاعدة للجبر فى القرن التاسع ، وابن سينا الطبيب والفيلسوف الشهير فى القرن الحادى عشر ، وأولوغ بك الشاعر الكبير ومنشئ الأدب الأوزبكى . ولقد حرم هذا الشعب النشيط ، فى الماضى ، من حقه فى إقامة دولة قومية ، لكن النظام الاشتراكى فتح مام الأوزبكيين آفاقا جديدة . . . »

وبعد أن يصف المحرر ما بلغه الشعب الأوزبكى من الرقى فى الزراعة والصناعة ، وما يبذل من جهد حر لزيادة اقتصاده القومى ، يقول :

إن نسبة المتعلمين فى البلاد قبل الثورة الاشتراكية لم تكن تزيد على ثلاثة فى المائة ، ولم يكن فيها مدرسة عالية واحدة ، أما اليوم فليس فى أوزبكستان أمى واحد ، وقد طبق فيها نظام التعليم الاجبارى المجانى ، وفيها اليوم ٣٧ مدرسة عالية ، و ٦٧ مدرسة صناعية ثانوية تضم ٤٥ ألف طالب !

من العراق

البيان الجزء ٢٩-٣٠ (نوفمبر ١٩٤٧)

مقال للأستاذ صدر الدين أحمد بعنوان « إسفنج وصخر » يوازن فيه بين ما ينتجه أدباء مصر وسورية على الجملة ، وما ينتجه أدباء النجف — العراق ، فيقول :

« كل شئ فى ملكوت السماء والأرض يستهوى قلوب الأدباء إلى التأمل والاعجاب . . . إلى التصوف والزكانة . . . إلى التفاؤل والطرب . . . وإلى ما أدرى وما لا أدرى من المعانى السافرة على الأفق المشرق . . . على الروض الشادى . . . على القفر الصامت . . . على البحر المتماوج الأعطاف . ولكن أين أدباؤنا من

مطالعة هذه الروائع الفاتنة البهيجة الألوان ؟ أفلا يملكون لها عيونا تقبس ، وقلوباً تخفق ومدارك تعى وتترجم ؟

« ومشاكل الناس الاجتماعية من يعالجها ؟ وظلاماتهم الاقتصادية من يناجزها ؟ وأمانيهم القومية من يجلوها ويصورها ويعلنها ؟ فياما أتعس الأمة إذا شقيت بتقاعس أدبائها عن نصرها وتعضيدها على كل حال !

ليست المواهب الأدبية فى النجف بأقل من مثيلاتها فى سورية ومصر ، ولا هى قاصرة عنها فى معاناة شتى أساليب التفنن والابتكار والتنافس والتعاون والتصادم والتعاطف والنقد والتقريظ ، ولكنها فى الواقع أصبحت كالاسفنج ، تمتص وتستوعب وتستزيد ، وكالصخر تبخل وتشح فلا تهيئ صعيداً ممرعاً لفيضان الانتاج ، وتهذيب الأذواق ، وإيقاظ الحماس ، وتلميع الأخيلة والعواطف والطباع . وهل يغيب عن أى المتبصرين ما كان للأدب الوطنى من أثر فى استقلال سورية عن باريس ، ونهضة مصر إلى الاستقلال عن لندن ؟

« أنا لا أنفى نفيا ، أن فى النجف أدبا مهيضا يرفرف لمناسبات تقليدية فى مآتم الأموات ومحافل الأعراس والترحيب ، وإنما الذى يحز فى حشاشة نفسى ألا يتطور هذا الكائن من الأدب فيشارك العصر الحديث فى أحاسيسه ، ويصاهره فى منازعه وأهدافه ومراميه . فاعملوا — يا أدباءنا — فسيرى الله عملكم ويشكره لكم أضعاف ما سوف يشكره لكم أبناؤكم جيلا إثر جيل . »

الجزيرة الجزء التاسع عشر (نوفمبر ١٩٤٧)

مقال للأديب فؤاد الونداوى بعنوان « خواطر يثيرها أديب » يتحدث فيه عن وجهة الأدب ، من حيث هو فن فى ذاته ليس يقصد منه إلا اللذة العقلية ، ومن حيث هو وسيلة لخدمة الحقيقة والمثل الأخلاقية ؛ فيجعل الأدب نوعين : الأدب الجيد ، والأدب العظيم . فالأول يتوخى الجمال أو يتوخى اللذة العقلية وحسب ، والآخر يتوخى فوق الجمال واللذة ، إشاعة السعادة بين أفراد البشر ، وإنماء العطف المتبادل بين الناس ، وتمثيل الحقيقة التى تتصل بنفوسنا وتتعلق بصلاتنا بالعالم

ويمكنها أن تقوينا وتشدد هممنا . . .

ويخلص من هذا التقسيم ووزن مقاييسه ، إلى الجزم بأن اتصال الأدب بالحياة معناه تحقق وجوده ، وأن انفصاله عنها يعنى تحقق عدمه ، أراد الانسان ذلك أو لم يرده . . .

« إن الأدب نقد للحياة ، لأنه يخدم الحقيقة ويتمسك بالمثل العليا فى دائرة قواعده الفنية ، فان انحرف عن هذه الجادة فان الذوق سيزور عنه بدوره ، لأنه ينزع إلى مسايرة الحياة العادية التى كيفت خصائصه ، ومن باب أولى أن يساير الحياة المثلى التى يدعو إليها أدب الحياة . . .

« وما دام الأمر كذلك فعلى الأديب إذن أن يفهم الحياة والعالم فهماً متقناً شاملا ، لتستمد من وراء ذلك قوته المبدعة غذاءها الصالح ؛ فبمقدار تفاوت الأدباء فى هذا الفهم ، تتفاوت قواهم الأدبية ولو تساوت مواهبهم الابداعية . »

فى مجلات الغرب

من فرنسا

أوربا *Europe* (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

المقال الافتتاحى فى هذا العدد كتبه الكاتب زلبى تحت عنوان : « الحقيقة فى أمر مونيخ . » وقد كتب هذا الكاتب بحثه بعد اطلاعه على كتاب كايث فلنج عن حياة نيفل تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية فى ذلك العهد ، ومذكرات نيفل هندرسون السفير البريطانى فى برلين . وفى رأيه أن مؤتمر مونيخ لم يكن إلا مسرحية مدبرة من قبل ، أريد بها تغطية سياسة تشمبرلن الذى كان قد سلم لهتلر فى اقتطاع إقليم السوديت من تشيكوسلوفاكيا ، و إضعاف تلك الدولة بل القضاء عليها ، وذلك فى سبيل أمل كان يكنه تشمبرلن وهو الوصول إلى عقد اتفاق بين هتلر وانجلترا . وهو يثبت نظريته بما نشر فى كتاب حياة تشمبرلن . وكان تشمبرلن يرضى بتضحية حلفائه فى سبيل الوصول إلى غرضه ، مما أدى إلى زيادة أطماع الزعيم الألمانى . فكأن سياسة انجلترا الملتوية هى التى أدت إلى الحرب بدلا من منع أسبابها .

وفى هذا العدد طائفة من الشعر بقلم بعض الناشئين من الشعراء الفرنسيين . وفيه قصة بقلم أندريه برديه ، وأخرى بقلم أديث توماس ؛ كما يحتوى العدد على بحث طويل عن ستيفن زفايج الكاتب النمساوى الشهير ، وقد حللت الكاتبة مؤلفاته ووصفت حياته وصفاً مسهباً قبل هجرته من بلاده وبعدها إلى أن أقدم على القضاء على نفسه بالانتحار .

ومن المقالات الجديرة بالقراءة فى هذا العدد نص محاضرة ألقاها ملبو أكسيوتى أحد الأدباء اليونانيين ، فى اتحاد الجامعات الفرنسى ، وقد وصف فيها حالة اليونان الآن ، وما تقاسيه من ظلم وبؤس وعسف باسم الديمقراطية تحت إشراف الأجنبى .

من الجزائر

فورج Forge (العدد الثالث ١٩٤٧)

وهى كراسات أدبية تصدر باللغة الفرنسية فى مدينة الجزائر.

كتب الأستاذ محمد زكروزى فى المقال الافتتاحى عن شخصية جحا فى الأدب العربى. وهو يقول إن شخصية جحا من الشخصيات التى انطبعت فى الأدب القصصى الشعبى، وأن الروايات تزعم أنه كان عالما يمضى أوقاته بين المخطوطات. وقد ترك مجموعة من القصص ألفها أو اقتبسها من مشاهداته فى الحياة؛ وكانت النتيجة أن صار هو نفسه موضوعاً لقصص عدة. وينقل الكاتب بعض هذه القصص إلى اللغة الفرنسية.

وتكلم الأستاذ طاهر بشوشى عن الشاعر المصرى على محمود طه فى مقال قصير وعن نظرته إلى الحب، ونقل شيئاً من شعره إلى الفرنسية.

وفى العدد أيضاً طائفة من الشعر للشاعر محمد السيد حمو على وقد نشرت باللغتين العربية والفرنسية.

وفيه قصة لمانويل رويليس، وفيه طائفة من الشعر لكتاب فرنسيين وعرب ممن يقرضون الشعر بالفرنسية.

ومن البحوث الطريفة فى هذا العدد بحث عن الموسيقى العربية فى الجزائر.

من أمريكا

رومانيك ريفيو Romanic Review (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

وهى مجلة تصدر كل ثلاثة أشهر.

كتب فى هذا العدد الأستاذ نيوتن بمنت مقالا عن تاريخ القديس لويس ملك فرنسا الذى كتبه المؤرخ القديم جوانفيل، وما للطبعة التى أصدرها محل ميشيل من القيمة اللغوية. وهو يقول إن عدد النصوص التى يمكن منها دراسة النثر الفرنسى فى القرن الرابع عشر قليل نسبيا؛ لأن المخطوطات الأصلية

لم يحتفظ بها إلا فى القليل . وأكثر المخطوطات التى اعتمد عليها لدراسة هذا القرن كتبت فى القرنين اللذين تلواه . ويقول فى سياق المقال إن لويس التاسع توفى فى سنة ١٢٧٠ ، ونظرت الكنيسة فى أمر رفعه إلى مرتبة القديسين فى سنة ١٢٩٧ بعد تمحيصات عدة سمعت فى أثنائها شهادة جوانفيل . وبعد ذلك طلبت زوج حفيده فيليب الرابع من جوانفيل أن يكتب تاريخاً يسجل فيه مناقب الملك القديس لويس فبدأ يكتب مؤلفه . ويأخذ كاتب المقال فى تمحيص تاريخ وضع الكتاب ومخطوطاته وما فى هذه المخطوطات من خلاف بينها .

وكتب جوينر جيتس مقالا فى الأمثال التى جاءت فى مسرحيات كالديرون الكاتب الأسبانى .

وللكاتبة جيرمين بريه بحث فى العنف ومظهره فى مسرحيات راسين . وهى تفحص هذا الموضوع بوجه خاص فى مسرحيتى بريتانيكوس وبيازيد ثم ايفيجينيا وفيدر . وقد قارنت هذه المسرحيات بمسرحياته الأخرى مثل اندروماك وفيدر . وهى تقول إن فى ذلك اللعب المميت من أجل السلطة والارادة والحرية يكون أكثر الناس تعرضا للأخطار ، وأكثرهم خطرا بالنسبة للكوارث التى يطلقون سراحها ، هم الأشخاص الأقوياء الذين يجمعون بين القوة وشدة الحساسية والذين يرغبون فى أن ينتزعوا من الآخرين الموهبة الارادية .

وبحث وادسويرث فى كتاب لابروبير الكاتب الفرنسى عن الأخلاق ، وميل الكثيرين من الناقدين إلى القول بأنه لم يكن شديد التدين ، أو هم ينكرون تدينه . وهو يصل إلى نتيجة هى أن لابروبير كان يزداد تمسكا بالدين كما يبدو من الطبعات المتتابعة لكتابه . وهو إذا كان قد غالى فى الحقيقة حين قال فى مقدمة كتابه سنة ١٦٩٤ ، إن الغرض الأساسى الذى يرمى إليه من وضع هذا الكتاب هو قيادة الملحدين إلى الدين ، وهذا القول منه كان ليسكت ناقديه ، فانه من الثابت مع ذلك أن هذه الفكرة كانت غرضا من الأغراض التى قصد إليها ، وقد كان شديد التحمس للدين .

وفى العدد بحثان : أحدهما كتبه برايس عن مونتسكيو ، والآخر كتبه سليم عزبان عن بيير لاسير وجيته ونتشه .

وذلك عدا نقد للكتب التى ظهرت فى البلاد التى تتكلم اللغات المشتقة من اللاتينية .

المسرح والفنون Theatre Arts (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

فى هذا العدد مقال للاستاذ جوليان هكسلى رئيس الهيئة الثقافية للدول المتحدة UNESCO وهو يبحث فى الدور الذى تقوم به هذه الهيئة فى مجال الفنون ، وهو يشرح شرحا وافيا المسائل التى ستعمل لها الهيئة .

وقد تكلم ستارك ينج عن فن التصوير ، والمسرح ، وهو يبين ما للتصوير من قيمة فى فهم المسرحيات ، ويضرب أمثالا لما كان له من قيمة فى إخراج المسرحيات والأوبرات .

وكتب الموسيقى الفرنسى الشهير داريوس ميلو Darius Milhaud مقالا عن وضع الموسيقى للأشرطة السينمائية وما يعترض المؤلف الموسيقى من صعاب فى ذلك .

وفى العدد مقال عن مبدأ الوحدة فى المسرح وشأنه فى المسرحيات اليونانية القديمة وشأنه عند المؤلفين المحدثين .

وفى العدد عدا ذلك بحوث أخرى عديدة جديرة بالقراءة فضلا عما تهتم به هذه المجلة من نشر صور ومناظر جديرة بالاقتناء .

المجلة الجغرافية الوطنية National Geographic Magazine (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

فى هذا العدد الملئ بالصور الملونة مقال للاميرال بيرد الأمريكى عن رحلة قامت بها بعض وحدات الأسطول الأمريكى لارتياد أراضى القطب المتجمد الجنوبى . وقد استعان المستكشفون بأحدث المخترعات التى ظهرت فى أثناء الحرب مما ساعدهم كثيراً فى التغلب على الصعاب التى يجدها مرتاد هذه الانحاء . فكانت معهم فى الطيارات التى أخذوها أدوات التصوير الاستطلاعى التى تقدمت فى أثناء الحرب ، والوسائل العلمية التى يمكن بها نقل الصور التى تؤخذ من الجو فتصير خرائط . ولم تكن الصعاب التى تعترضهم العدو المسلح ، وإنما كانت الضباب الشديد وسوء الرؤية ونزول الثلج وتراكم السحب . وكان مع الرواد آلة جديدة استعملت لأول مرة ، وهى عبارة عن مجنتومتر محمول فى الهواء يمكن بوساطته معرفة طبيعة الصخر الذى تغطيه الثلوج المتراكمة وما فيه من

معادن . وكانت معهم سفن من كاسرات الثلوج وهى التى نظم استعمالها فى أثناء الحرب .

وفى العدد مقال بالصور الملونة فيه وصف لزيارة إلى بلاد جواتيمالا من بلاد وسط أمريكا .

من انجلترا

سكروتنى *Scrutiny* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

وهى تصدر كل ثلاثة أشهر

يبتدئ هذا العدد بمقال للكاتب كوينتن أندرسون عن هنرى جيمس الأديب الأمريكى الذى عاش فى نهاية القرن التاسع عشر ومبدأ القرن العشرين ، وعلاقة كتاباته بالنظريات التى كان يقول بها والده الفيلسوف هنرى جيمس فى بحوثه فى الدين وعلم النفس . وهو يخرج بنتيجة هى أن الأديب تأثر كثيراً بنظريات والده الفيلسوف وآرائه .

وفى هذا العدد مقال عن المجلات التى صدرت فى نقد الأدب ؛ وقد أتى المقال على تاريخ هذه المجلات وقيمتهما وتأثيرها فى الحياة الأدبية .

ويوالى الكاتب كلنجوبولس بحثه فى القصة التى تكون بمثابة الشعر المسرحى . وهو يتكلم هذه المرة عن رواية مرتفعات وذرنج، ويصف بأسهاب ما فيها من مواقف شديدة تجعل للقصة من القيمة ما لمسرحيات عهد اليزابيث ومسرحيات اليونان القديمة .

وكتب مستر ميلرز عرضا للحياة الموسيقية سواء منها ما سمع فى الحفلات الأخيرة وما ظهر حديثاً فى الاسطوانات .

وذلك عدا باب النقد للكتب ، وهو فى هذه المجلة من أهم أبوابها .

النشرة الأدبية لجريدة التيمس *Times Literary Supplement* (عددا سبتمبر وأكتوبر ١٩٤٧)

فى عدد سبتمبر مقال افتتاحى عن طريقة الحياة فى أثينا قديماً . وفيه أتى الكاتب على خلاصة محاضرة للأستاذ جلبرت مرى الاخصائى فى الدراسات

اليونانية ألقاه فى الجمعية الخاصة بهذه الدراسات . وفى رأى الأستاذ أن الاقبال زاد على دراسة آثار اليونان بعد الحرب ؛ يدل على ذلك اهتمام طلبة المدارس باختيار اللغة اليونانية وإقبالهم على دراساتها ، فضلا عن إصدار الكتب العديدة التى هى عبارة عن ترجمة لمخلفات اليونان فى ميادين الفكر المختلفة ، وإذاعة المسرحيات اليونانية القديمة ثم زيادة أثمان الآثار اليونانية زيادة كبيرة .

وقد أخرج كثيرون من فطاحل الباحثين الأميريكيين والانجليز كتباً هامة فى هذه الدراسات ، ومن أهمها كتاب للأستاذ بيزلى عن الأوانى اليونانية ، وكتاب الاستاذ باورا عن المأساة عند سوفوكليس .

ويقول الأستاذ مرى فى دعوته لدراسة الأدب اليونانى إن اليونان كانت أول استيقاظ للعقل الانسانى باتجاهاته المختلفة فى البحث وراء الحقيقة ، وخلق الجمال ، والطلب الدائم لحياة طيبة يحياها الانسان .

وفى هذا العدد مقال طويل ينوه فيه كاتبه بكتاب جون ريولد عن تاريخ التصوير المعروف بفن النظرة العابرة impressionism ويقول إنه استطاع فى كتابه هذا أن يجعل من موضوع معقد صورة جلية مرتبة ترتيبا تاريخيا ، مبتدئا بنظرة عامة عن الفن الفرنسى فى سنة ١٨٥٥ ، ثم قيام الثورة على الفن القديم الذى تؤيده مدرسة الفنون الجميلة والمعارض المختلفة الرسمية ، وما كان من عرض الثائرين لصورهم وأشهر ما أخرجته هذه المدرسة الفنية .

وذلك عدا العشرات من البحوث عن كتب صورت فى مختلف الفنون .

وفى عدد أكتوبر اتخذ المقال الافتتاحى موضوعه من مقال نشر فى مجموعة مؤلفات الكاتب الأمريكى هويتمان وهو تحت عنوان « نظرات إلى الخلف» . وقد أراد هويتمان أن يعارض رأى لونجينوس الشاعر القديم حين قال إن ما يرمى إليه الشاعر هو التأثير وأن ما يرمى إليه الناثر هو الوضوح . أما هويتمان فيرى رأيا غريبا وهو أن أكبر خدمة للأدب هى ملء القارئ بالرجولة القوية والاحساس الدينى وبالقلب الطاهر . وهو ينكر أن الشعر أو أية كتابة أخرى تخدم العقل أو تصور مشاعر أو شخصيات أو حوادث .

وفى هذا العدد مقال عن الجو الأمريكى بمناسبة ظهور كتاب جون جانتر

المسمى « داخل الولايات المتحدة » . ويرى كاتب المقال أن وصف الشعب الأمريكي بجملته أصعب من وصف الأوربيين مع أن الأوربيين شعوب مختلفة . وهو يرى أن مستر جانتر أقدم على عمل ضخم متنوع . وقد رسم صوره بطريقة سينمائية تترك أثراً كبيراً في عقل القارئ ، وإن كانت لم تروِ قصة الولايات المتحدة بأكملها .

وفي هذا العدد مقالات عدة جديرة بالقراءة ، لعل من أهمها مقالة في فلسفة الموسيقى في نظر الفيلسوف كيركجارد .


أندريه جيد
مدرسة الزوجات
يليها روبير وجنفييف
تعريب صبري فهمي
دار الكاتب المصري
مدرسة الزوجات
يليها روبير و جنفييف
تأليف أندريه جيد
تعريب صبرى فهمى
فتاة فى نشوة الحب
ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها
دفاع الزوج عن نفسه
حكم الابنة على والديها
٣١٢ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

شبح كانترفيل

تأليف

أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هذا القصر التاريخى الى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سان جيمس

طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم « م. ج. م. »

١٢٨ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

ستواصلون بشغف قراءة حوادث هذا الشبح المسكين الذى يرتعد خوفاً ويفر هارباً عند ما يرى شبحاً آخر !





٣٢٠ صفحة

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

وازن الأرواح

تأليف أندريه موروا

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

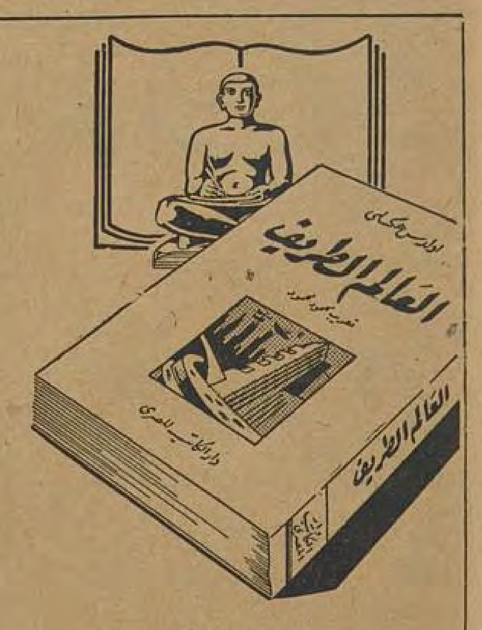
تعريب عبد الحليم محمود

هل توجد الروح ؟ وكم تزن ؟ هل يمكن الاحتفاظ بها ؟ وهل يمكن أن تمتزج بعد الموت روحان كانتا مؤتلفتين أثناء الحياة ؟

٢٠٠ صفحة

الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)





العالم الطريف
العالم الطريف



أرض البشر

للكاتب الطيار

أنطوان دى سانت إكسوپرى

تعريب مصطفى كامل فوده

أرض البشر، تلك الهباءة من الثرى التائهة بين الأجرام السماوية، تلك الأرض الجديرة بأعجابنا لأنها وحدها تكوّن الرجال.



طبعة مزينة بالصور

٢٤٢ صفحة

الثمن ٣٥ قرشاً

(البريد ٢٠ مليما)



مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية